فاطمة المرنيسي

هل أنتم محصَّنون ضد الحريم؟

ترجمة : نهلة بيضون


المركز الثقافي العربي

نشر
الفنك

فاطمة المرنيسي

هل أنتم محصَّنون ضد الحريم؟

نص اختبار
للرجال الذين يعشقون النساء

ترجمة : نهلة بيضون

مقدّمة

لا أريد أن أسبّب الهلع لوزير الصحة المنهمك بجَلد الكثير من القطط ذكوراً وإناثاً[1]، ولكن يبدو لي، استناداً إلى شائعات لجوجة تتناقلها «إذاعة المدينة»[2] ولن تتمكّن

(1) بما أن النساء يطالبن بالمساواة، يجب منح الوزراء حق جلد القطط الإناث بالرغم من أن اللغة الفرنسية لا تجيز سوى جلد القطط الذكور. إنني أتصرف باللغة الفرنسية كما يحلو لي، فأقول *Une* écrivaine (أديبة) و *Une* médecin (طبيبة) عندما يتعلق الأمر بالمرأة، وأخترع كلمات جديدة، الخ. ولا شك أن الوزير الغالي للفرانكوفونية سوف يستشيط غضباً، ولكنه مخطىء لأنه يجب أن يعترف بأن تدويل «لغته» يعني حرية الآخرين في تكييفها وتعديلها وإعادة إبداعها. وأعتقد أن تصرفي باللغة التي اخترتها، سواء كانت محلية أو أجنبية، يشكل جزءاً من امتيازاتي كمواطنة ذات سيادة. وهذا ما أعتبره إبداعاً.

(*) تضيف الباحثة كلمة chattes (مؤنث chats) إلى التعبير الاصطلاحي الفرنسي avoir d'autres chats à fouetter الذي يعني الإنشغال بأمور أخرى، وقد أبقيتُ على الترجمة الحرفية لتكون ملاحظة الباحثة مفهومة للقارىء (المترجمة).

(2) إذاعة المدينة: إشاعة يعتقد المرء أنها ملفَّقة إلى أن تصدر وزارة الإعلام، أو الوكالة المغربية للأنباء، أو الجهة المسؤولة بياناً تعلن فيه رسمياً أنها عارية عن الصحة، فيتأكد المرء (أو المرأة) أنها صحيحة (قه! قه! قه!).

كل الصحون اللاقطة في درب غلَّف[3] من إسكاتها، أن وباء «الحريم» يعيث فساداً في الدار البيضاء. ويتعلّق الأمر بفيروس خبيث للغاية، من رواسب داء قديم كان منتشراً في القرون الوسطى، في زمن الخليفة هارون الرشيد (القرن الثامن) وساد الاعتقاد بإمكانية القضاء عليه على غرار السلّ والتيفوئيد.

وللأسف، فهذا الفيروس الخبيث يهاجم الرجال في عالمنا اليوم، على غرار عائشة قنديشة اللعينة[4] (يا حفيظ، يا ستار)، ويتغلغل في عقولهم ويوحي لهم برغبة

(3) بالنسبة إلى «القرويين» الذين لا يعيشون في الحاضرة الكبرى الدار البيضاء – الرباط، كان درب غلّف، قبل الإصلاح، أكثر أسواق الأجهزة الكهربائية رقياً وأرخصها ثمناً.

(4) عائشة قنديشة جنية وروح شريرة أنثى، شديدة الشبق، دائمة السعي وراء الشبان الذين تسحرهم، وهي تعيث فساداً في شمال أفريقيا، ومتعتها المفضلة مهاجمة الشبان الذين يتنزهون في الأماكن المهجورة، لا سيما الينابيع والأنهار، وأعتقد أننا يجب أن نضيف إليها الشواطىء والمسابح. وما أن تختار عائشة قنديشة ضحيتها حتى تخترقها وتسكنها (كتسكنو)، ويصبح الشاب المسلوب عبداً لها، مفتوناً بها، ولا يعود يفكر بغيرها. ولقد أغفلت تفصيلاً مهماً بشأنها، فهي تتجلى دائماً على هيئة امرأة حسناء. وأنصحكم للتحقق من هويتها أن تنظروا إلى قدميها (وهذا ما لا يفعله الشبان المسلوبون قط)، وسوف تنتبهون على الفور أنهما يشبهان أظلاف الحيوانات. النجدة! وللّذين يرغبون بدراسة هذه الأسطورة، يجب العودة إلى الإلهة القديمة قادش أو قادشة في أي معجم أو موسوعة للأساطير في الشرق الأوسط القديم. وقد تكون عائشة قنديشة استمراراً للأساطير القديمة في الذاكرة الجماعية، لا سيما التطيُّر المنهجي من الآلهة الإناث بعد حلول النظام الأبوي.

جامحة في أن يروا شريكتهم التي تضاهيهم تحضراً، ولعلّها أستاذة في جامعة محمد الخامس، أو طبيبة في مشفى إبن رشد بالدار البيضاء، تتصرَّف كالجارية.

وأصل كلمة جارية، جري، أي هرولة، حسب لسان العرب لإبن منظور. والجارية هي التي تلبي نداء سيدها، وتكون في خدمته. ويخبرنا إبن منظور، مؤلف لسان العرب، أن جارية مجرَّد مرادف لخادم[5]، وثمة مرادف آخر لكلمة جارية هي قينة، وهو أكثر تخصيصاً، إذ يدل على الجواري اللواتي كن يجدن العزف والغناء، وبهذا المعنى، تكون القينة هي الترجمة الدقيقة للكلمة اليابانية geisha (غيشا) التي تعني حرفياً فنانة، فالغيشا هي التي ترفِّه عن السادة[6]. أما كلمة odalisque (محظية) التي ذاعت لدى جيراننا الأوروبيين، وألهمت فنانيهم، بدءاً من

---

(5) أنظر كلمة جارية في لسان العرب لابن منظور.

(6) كانت كلمة غيشا geisha التي تعني حرفياً «فنانة» إحدى الكلمات العديدة التي تدل على مهن نسائية في النصف الأخير من القرن الثامن عشر: ففتيات الغيشا البيض shiro geisha كنَّ مجرد فنانات، بخلاف koroby geisha اللواتي كنَّ "ينحنين" أمام الزبائن. أما kido geisha أو الحاجبات، فكن يقفن أمام الكارنفالات، ويعزفن لاجتذاب الزبائن، في حين أن joro geisha أو بنات الهوى كنَّ يستخدمن لمواهبهن غير الموسيقية على الأرجح. وحوالي عام 1770، بدأت الراقصات السابقات في المدن الإقطاعية أو odoriko يعرفن باسم machi geisha أو town geisha خلافاً لفتيات الغيشا اللواتي كنَّ يعملن في الأحياء المرخَّصة في المدن الأرقى. وقد أوردت ليزا دالبي هذا التصنيف في كتابها المذهل: =

إنغر (1780 – 1867)، ودولاكروا (1798– 1863) وصولاً إلى ماتيس (1869 – 1954) وبيكاسو (الذي رسم بدوره حريمه!) أصلها تركي oda، أي الحجرة، وتدل تعميماً على البيت وكذلك المرأة الحبيسة فيه[7].

ولنا أن نتساءل لماذا رسم هؤلاء الفنانون الأوروبيون محظيات ولم يرسموا الجواري. لقد فعلوا ذلك لأن الحريم الذي ألهب مخيلتهم لم يكن حريم العرب أيام الخليفة هارون الرشيد، بل حريم السلاطين العثمانيين الذين بسطوا سيطرتهم على أوروبا وأرهبوا عواصمها منذ سقوط القسطنطينية عام 1453 حتى أوائل القرن العشرين. وعلى كلِّ حال، فالأوروبيون، كما نتوقع، يتمتعون باكتفاء ذاتي من ناحية المفردات التي تدل على المرأة الخاضعة، فلديهم كلمة courtisane، المحظية، وأصلها إيطالي courtigiano، corte، أي البلاط حرفياً، وتدل هذه الكلمة تعميماً على شخص ينتمي إلى حاشية أمير،

= Liza Dalby, *Geisha*. Vintage Books, Random House, New York, 1986, p. 56.

(7) تعني كلمة Oda (أوضة) حرفياً «غرفة» أو «حجرة» أو «مسكن» تعميماً. وكانت تدل في السراي على غرفة الخدم أو الجواري، وأصبحت تدل عسكرياً على الثكنة ومن ثم على الكتيبة.

N.M. Penzer, *The Harem*

"An Account of the institution as it existed in the palace of the Turkish Sultans with a history of the Grand Seraglio from its foundation to modern times." Spring Books, London, 1965, first edition published by Harrap in 1936, note de la p. 91.

ويمعن بالتالي في المديح والتزلُّف. وتحدِّد المحظية قاعدة اللعبة بل تعكس جوهر الحريم الذي هو، قبل كل شيء، هندسة معمارية. فالحريم مفهوم مكاني وحدود تقسم الفضاء إلى قسمين : فضاء داخلي أنثوي، مستتر ومحرَّم على كل الرجال ما عدا السيِّد، وفضاء خارجي مفتوح على كل الرجال ما عدا النساء. وكلمة **حريم**، تعني الحرام والحرم في آن، أو المكان المقدَّس الذي يخضع الدخول إليه إلى قوانين محدَّدة وصارمة(*). والحريم هو كذلك الفضاء الخاص المحظور على العموم. وعلى غرار كلمة odalisque، المحظية، يشمل الحريم في آنٍ المكان والنساء اللواتي يعشن فيه ويملكهن رجل واحد هو الحامي والسيد(8). وتعود كل هذه

(*) يقال حرَم البيت، حرَم المدرسة، حرَم الجامعة، (البيت الحرام في مكّة المكرّمة)...

(8) لمعرفة المزيد حول أصل كلمة حريم، أنظر في لسان العرب لابن منظور، أحد أهم معاجم اللغة العربية. ويرى ابن منظور أن أصل كلمة حريم هي حَرَام، أي الأشياء الممنوعة. ويبدأ فيقول إن أصل الكلمة حِرْم و حَرَام أو نقيض الحلال. وتدل كلمة حريم على ما يحظَّر لمسه (والحريم: ما حُرِّمَ فلم يُمَّس)، والحريم: ما كان المُحْرمون يلقونه من الثياب فلا يلبسونه. وكان العرب في الجاهلية إذا حجّوا البيت يخلعون ثيابهم التي عليهم إذا دخلوا الحَرَم ولم يلبسوها ما داموا في الحَرَم. «وكان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت عراةً ويقولون: لا نطوف بالبيت في ثياب قد أذنبنا فيها. وكانت المرأة تطوف عريانة أيضاً...». وأخيراً، يذكرنا ابن منظور بأن «حَرَم مكّة» هو حرم الله وحرم رسوله، وأن =

الألفاظ: جارية، قينة، غيشا، محظية، وأمَة، إلى حقبة تاريخية سحيقة كانت الأمم فيها تقوم على الفتوحات العسكرية، ويغادر فيها القادة الغزاة في الصباح الباكر، مدجَّجين بالسلاح، ويؤوبون مساءً مع غنائمهم وجلُّها من البشر الذين تحولوا إلى عبيد بعد سقوط مدينتهم. وكانت القوة العسكرية واغتصاب أملاك الجيران العاملين اللذين يولدان الثروة التي يعتبر الأسرى المستعبدون جزءاً منها.

= الرجل الحرام هو الداخل في الحرم، أي قد اجتاز عتبة بيت الله وأصبح سلوكه خاضعاً لقوانين صارمة. ويقال المسجد الحرام، والمُحرَّم: شهر الله، سمته العرب بهذا الإسم لأنهم كانوا لا يستحلُّون فيه القتال ومن الشهور أربعة حُرُم من بينها شهر مُحرَّم. ثم ينتقل صاحب لسان العرب، بعد أن يغوص في أصل الكلمة، إلى دلالات أخرى فيذكرنا بأن حُرْمة تعني ما لا يحلُّ لك انتهاكه وهتكه واستحلاله، وحُرْمة الرجل تعني حُرَمَه وأهله، وحريم الرجل ما يقاتل عنه ويحميه، نساءً وأولاداً وكل الذين هو مسؤول عنهم، وهؤلاء اسمهم محارم، والمرأة الحُرْمة أو المَحْرَم هي المُحرَّم نكاحها لأنها متزوجة أصلاً برجل له عليها حقوق حصرية. ومن ثم، ينتقل ابن منظور إلى المكان فيقول إن الحريم هو قَصَبَة الدار وفناء المسجد، وحكي عن ابن واصل الكلابي: حريم الدار ما دَخَل فيها مما يُغلِق عليه بابُها. ونقيض حريم في هذا المعنى هو فِناء، أي الباحة الخارجية، وما خرج منها فهو الفناء. وينهي ابن منظور شرحه مذكراً بأن حِرْم يعني المنْع أوالحرمان، وبأن حِرْم علاقة قربى، ومن المعروف أنه لا يحق للمرأة السفر بمفردها، لا سيما للذهاب إلى مكة من أجل أداء فريضة الحج إلا إذا كان يرافقها مَحْرَم (لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم منها)، والمحرم، كما يقول ابن منظور، من لا يحلُّ له نكاحها من الأقارب كالأب والإبن والعم ومن يجري مجراهم.

وجرى الماء والدم ونحوه جريا وجرية وجريانا...
وجرت الأقلام مع جرية الماء...
والجري: الرسول، وقد أجراه في حاجته...
جريا أي رسولا. والجري الخادم أيضا...
والجارية: الفتية من النساء بينة الجراية والجراء
والجرى والجراء والجرائية...

لسان العرب لابن منظور

لقد بنت كل الحضارات ثروتها على الاسترقاق بدءاً من الإغريق والرومان الذين أعطوا العالم المتحضر حريمه الأول: gynécée من اليونانية gynœceum ومعناه الخِدْر.

ولو قلتم للفرنسيين إن الحريم الإغريقي لا يزال ماثلاً في لغتهم الحديثة، لأقسموا أنكم على خطأ، وأنكم تجهلون دقائق لغتهم. ومع ذلك، كلما لفظتم كلمة gynecologue، أي الطبيب الاخصائي في الأمراض النسائية، فأنتم تستخدمون الكلمة اليونانية gunê و gunaîcos التي تعني امرأة، وهي أصل كلمة gynécée. وكان الإغريق يميِّزون بين gynécée أو الحريم، وهو النطاق الخاص بالنساء والأطفال الذكور الذين لم يبلغوا بعد، و polis، المدينة التي تشكل النطاق العام، ومجال

الذكور الراشدين الذين يقررون ويحكمون[9]. ولا تزال المدينة الإغريقية حاضرة بيننا اليوم، وهي ماثلة في أصل كلمة police أو جهاز الشرطة الذي يؤمن النظام في المدينة، ويبقى هذا الجهاز، كما لو بالصدفة، حكراً على الذكور في معظم الدول الحديثة، وقد بدأت تظهر بعض الشرطيات عند إشارات المرور في بلادنا. . .

وكلمة polis هي أيضاً أصل كلمة politique أو سياسة، من اليونانية politikos، وتعني حكومة المدينة. ومرة أخرى، وكما لو بالصدفة، تكاد هذه الحكومة تكون حكراً على الذكور في زمن السواتل والإعلام الرقمي. وخلاصة القول إن الفيروس الذي أريد أن أحدثكم عنه ليس مرضاً معيباً من أمراض الدول الفقيرة والنامية، فهو يعيث الفساد خفيةً في «أغنى دول العالم» كما يحلو لها أن تسمَّى. وكلما اعتقدت هذه الدول أنها حديثة، اشتدت غطرستها وتربَّص بها **فيروس الحريم**، على غرار عائشة قنديشة (أعدكم بالكف عن ذكر اسمها، فأنا بدوري أخشاها).

قد يُعذر الفلاح الجاهل الذي يحلم بالحصول على جارية، أو امتلاك أمَةٍ تعنى بماشيته. أما الرجل الحائز

(9) أنظر الكتاب الرائع لباسكال كينيار Pascal Quignard, *Le sexe et l'effroi*, Gallimard, 1994, pp. 20 et suivantes.

شهادة جامعية، والذي يملك حساباً مصرفياً (والمصارف لا تقرض سوى الأثرياء)، ويستعمل حاسوباً، ويحلم بشراء هاتف خليوي (هذا ما لم يكن قد اشتراه أصلاً)، والذي تساوره الرغبة في رؤية شريكة حياته أو زميلته، الموظفة أو المحامية أو الأستاذة الجامعية مثله، تخدمه كالجارية والمحظية والغيشا، فيجب أن يعتبر نفسه **حريمي المصل**، والأجدر به أن يراقب نفسه عن كثب. ونحن جميعاً نعلم، كما يردّد على مسامعنا وزراء الصحة في بلادنا، أن درهم وقاية خير من قنطار علاج، والرجل المجرَّب يساوي رجلين، مما يشكل مكسباً كبيراً لزوجته.

ولا يملك فيروس **الحريم** الغريب هذا عوارض جسدية مما يزيد الأمور تعقيداً، فهو يهاجم استقرارك العاطفي، وتختلف الصورة التي يتجلّى فيها باختلاف «ميادين المعركة» لو شئنا التعبيرعن ذلك باللغة العسكرية، إذ يصوِّر هذا الفيروس الماكر لدى البعض أحلاماً خفية يتخيَّل فيها الرجل نفسه بصحبة ثلاثة نساء يقمن بتدليله، وإن كانت امرأة واحدة ترضيه كل الرضى على أرض الواقع. ويوقظ هذا الفيروس، لدى البعض الآخر، الرغبة عند الرجل بشريكة سلبية، دائمة الخضوع والصمت، حتى لو كانت مدجَّجة بالشهادات الجامعية، تدير ورشة بناء تضم مئات العمال في مراكش، أو ترأس شركة تأمين

في الدار البيضاء، أو تتعامل بالمليارات يومياً في أحد المصارف.

إطمئنوا، ففيروس **الحريم** ليس فتاكاً كفيروس السيدا، بل على العكس، فالرجل «المريض» يبقى صحيحاً معافى من الناحية الجسدية على الأقل. ولكن الرجل المتأهب الذي يقوم بالتحليل الذاتي ويعيد تقويم نفسه هو هبة من السماء لبلده وأسرته، لأنه «مبدع» وينقل حماسه إلى كل الذين يتعاملون معه، وفي المقام الأول، إلى زوجته. وبالتالي، ثابروا على الوقاية من مرض السيدا وامتثلوا بدقة لنصائح د. حكيمة حمِّيش، رئيسة الجمعية المغربية لمكافحة مرض السيدا، وفريقها الطبي[10].

ولكن الجسد السليم لا يكفي للحصول على السعادة، طالما أن انفعالاتك لا تستجيب وأنك تعاني من حالات حصر عاطفي، ذلك أن نوعية ملذاتك سوف تتأثر سلباً. أنظروا إلى ما يصيب جيراننا الأوروبيين: إنهم يتمتعون بصحة جيدة وبالثروة ولكنهم يفتقرون إلى السعادة في حياتهم، وأحد أسباب تعاستهم أن رجالهم يحلمون دوماً بالحريم، ولكن دون الاعتراف بذلك علناً، لأن القانون يمنعهم. وهكذا، تقبع أحلامهم في الغياهب

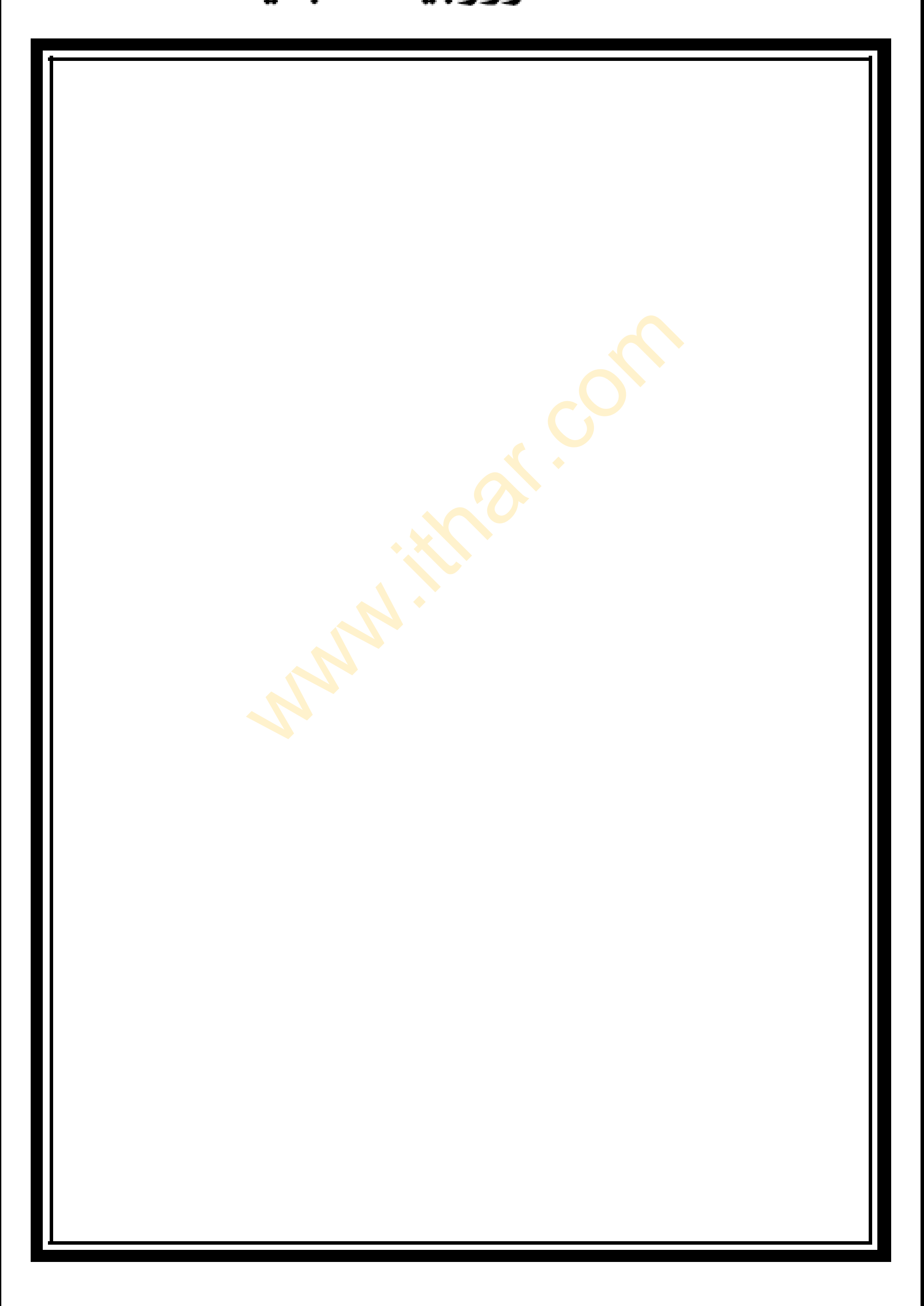
---

(10) للإستعلام حول مرض السيدا، الاتصال هاتفياً بمركز الإعلام والمشورة التابع للجمعية المغربية من أجل مكافحة السيدا - الدار البيضاء على الرقمين التاليين: 206060 أو 994242.

النفسفوضائية، ثم تطفو على السطح على هيئة عارضات الأزياء، هؤلاء «الغانيات» العجيبات اللواتي يعانين من سوء التغذية وتقوم دور الأزياء الراقية بفرضهن من خلال الدعاية التي تكلف المليارات.

الفصل الأول

الطفلات الأوروبيات الجميلات



يستشري فيروس **الحريم**، كما علمتم لتوّكم، لدى جيراننا في دول شمال المتوسط. وما يميز الرجال الأوروبيين عن غيرهم أنهم يظنون أنفسهم متحضرين ومحصَّنين ضد أية رؤية خنوعة للنساء. والمفارقة أن العالم الغربي موبوء، لأن هذا الفيروس يهاجم تحديداً الدول التي تحرَّرت فيها النساء بفضل انخراطهن الواسع في مجال التحصيل العلمي وسوق العمل. ويكفي أن نلقي نظرة على الإعلانات الغربية أو نتأمل نموذج الجمال المتمثل في عارضات الأزياء الراقية: فهؤلاء العارضات لا يتجاوزن سن الثانية عشرة؛ وحتى لو كنَّ في العشرين، يجب أن يحافظن على هيئة الحيرة والهشاشة والقلق أمام سيدهن، أي المصوِّر، وكذلك سحرة المال الذين يتلاعبون بالصور ويملون القوانين. ويذكِّر نموذج الجمال الغربي، كما يتجلَّى في العروض الطقوسية لدور الأزياء الراقية أو في المجلات النسائية، بصورة غريبة، بالنموذج

الذي كان سائداً في النظام العبودي في روما قبل المسيحية: «كان الأسياد يتزوجون نساءً تتراوح أعمارهن بين السابعة والثانية عشرة، لم يبلغن بعد، قد تزايد خضوعهن بسبب انتقالهن إلى بيت الزوج، وتملكهنَّ الهلع أمام المهمة الملقاة على عاتقهن. .لقد كان بلوغ الفتيات يتقرَّر قبل الثانية عشرة، ولكن الملذات الإيروتيكية والتدريبية التي يمكن الحصول عليها قبل سن البلوغ. . . تتجاوز وظيفة التناسل والفقدان الشرعي لكل جاذب إيروتيكي. . .»[1]. وبالرغم من الفارق الزمني الذي يبلغ اثنين وعشرين قرناً، يبدو الشبه مذهلاً بين نموذج المرأة لدى الأسياد الرومان عام 195 قبل الميلاد، وما تمليه مصانع الصور والقوانين الإعلامية من معايير جمالية على النساء الغربيات! ويكمن حل اللغز في الاستقلالية الاقتصادية لأولئك النساء وتحررهن المادي والضغط السياسي الذي رحن يمارسنه منذ السبعينيات. ففي الواقع، يمكن تبرير هزال العارضات ويفاعتهن بكون النساء الغربيات لم يعدن مستضعفات ولا خاضعات ولا تائهات. فالنظام يقوم على النفور من الأجساد المكتنزة، رمز نضوج المرأة، لدى منتجي عارضات الأزياء الراقية. وبما أن النساء قادرات على منافسة الرجال في سوق

---

(1) Pascal Quignard, *Le sexe et l'effroi*, Gallimard. 1994. p. 29

العمل، يجب ابتكار حريم ذهني، أو فضاء متميز وحده الرجل يملك فيه هامشاً كبيراً من الحرية، هو هامش المظهر الخارجي. فبطن الرجل قد يتكوَّر قليلاً دون مشاكل، ويترهَّل من هنا وهناك على غرار المستشار الألماني (السابق) هلموت كول الذي يرمز اكتنازه إلى السلطة. وفضلاً عن ذلك، يستطيع الرجل أن يهرم دون الإصابة بعقد نفسية، لأن الشيب على الصدغين يمثل قمة الإغراء. أما المرأة التي تجازف بعدم تخضيب شعرها الشائب، وتكتنز وتمتلىء مع تقدمها في السن، فهي البشاعة بذاتها، بشاعة منبوذة. وهنا، تقع المرأة الغربية في مأزق حقيقي، فإذا ما استمتعت بخوض سباق الجمال الذي يمليه كهنة الأزياء الراقية، لا يعود بوسعها أن تسمن أو تهرم، أي أنها بعبارة أخرى، تقود نفسها بنفسها إلى شفير الهاوية.

إن شعار «التخسيس السريع» هو خدعة وأيما خدعة، وأنا أتحدَّث عن سابق تجربة.

ولحسن الحظ أن بعض الاكتناز والامتلاء لا يزال مرغوباً في ضفتنا من المتوسط بالرغم من التأثير المستمر للنموذج الغربي. وما يروق لي في المسلسلات التلفزيونية والأفلام المصرية أن البطلة غالباً ما تكون قد تجاوزت الخمسين؛ وينطبق الوضع على نجمات الأغنية والسينما العربية اللواتي يبدأن حياتهن الفنية كفاتن حمامة في سن

السابعة، ثم نتابع مسيرتهن حتى يصبحن جدات.

أما لدى جيراننا في شمال المتوسط، فالأنوثة يجب أن تكون دائماً مرادفةً للهشاشة والقلق. أنظروا عن كثب إلى عارضة الأزياء كريستين ماكينامي التي تشكل منافسة قوية لزميلتها كلوديا شيفر! وتذكَّروا كيف تعامل الباشا كارل لاغرفلد مع العارضة إيناس دو لا فريسانج حين تجرأت على اتخاذ قرار دون مباركة سيدها.

في عام 1994، كانت آخر صيحة أطلقها كارل لاغرفلد للأوروبيات المتحرِّرات هو ثوب grown-up baby doll (الدمية الراشدة)[2]؛ ترجموها، فتحصلون على حفَّاضة. وقريباً، سوف يبيع مصممو الأزياء الأوروبيون رضاعات مزخرفة على نسق حمرة الشفاه أو العطور. «طفلات جميلات أو لا شيء»، ذلك هو الخيار في الضفة الشمالية من المتوسط. فلتحيا المسلسلات المصرية التي تبلغ بطلتها الخمسين وتملك أردافاً مكتنزة، وليحيا قفطان وجلباب أسلافنا اللذين يستران كل العيوب!

وفي العام 1994 كذلك، تبخترت العارضة كارلا بروني على المنصة أثناء عرض مجموعة أزياء «بلو مارين» في مدينة ميلانو، وهي تدفع أمامها عربة أطفال تمددت

(2) Martha Duffy, *Fashion' Fall* in “Time Magazine”, 25 avril 1994, p. 56.

فيها. . . عارضة زميلة لها![3] علماً أن 35٪ من العلماء والمهندسين المحتملين هم من النساء في إيطاليا التسعينيات التي يحلم فيها كهنة الأزياء الراقية بوضع النساء في عربات الأطفال[4]، مما يعني أن فيروس الحريم ليس مرضاً معيباً، فهو يصيب علية القوم، «أبناء الحَسَب والنَسَب» في «أغنى دول العالم»، بل يسعنا القول إن هذا الفيروس الفظيع مؤشر جيد للعصرنة. فامرأة الحريم لا تستطيع كسب عيشها لأن المال موجود في النطاق العام، مجال الصفقات السياسية والتجارية. وفي المدينة التي تعمل فيها النساء، تتلاشى هندسة الفصل بين الأمكنة والوظائف. وفي هذه المدينة، تلتبس أدوار الجنسين، ويعتري الرجال القلق لأن المال والرجولة لم يعودا وجهين لعملة واحدة تلقائياً.

والمال يعني السلطة. والعارضات يظهرن على هيئة الأطفال ولكنهن يتقاضين أجوراً خيالية. وبالتالي، يبرز السؤال المخيف التالي: من هو صاحب القرار في مدينة تعمل فيها النساء؟ إنه سؤال جوهري في الحضارة الحديثة التي لم تجد بعد الجواب. كيف تتحدَّد الرجولة في هذه المدينة؟ إن نموذج العارضة الهشة والتائهة هو محاولة

(3) Martha Duffy, *Fashion' Fall*, idem.

(4) *Annuaire Statistique de l'UNESCO, 1992, Tableaux 5.3 sur "Potentiel scientifique et technique"*

للإجابة على هذا السؤال، والحجاب الذي يفرضه بعض السياسيين في الدول الواقعة جنوب المتوسط هو محاولة أخرى. وكل رجل يبذل ما بوسعه، والنساء يعملن لقاء أجر، ويراقبن بقلق معدلات البطالة، ويحاولن الإيحاء بأن الحل قد يكمن في الحب والحنان. ويقترحن بنعومة أن الرجل ربما يجب أن يعدل عن تسلم دفة القيادة بكل بساطة، وعلى جميع المستويات. فلماذا لا يعاد تحديد الرجولة على أنها العطاء في الحب؟

ألا يمكن تصور كوكب يكون فيه قوام الرجولة حناناً متدفقاً؟ رجال ينتحبون حين نفارقهم في الصباح، ويدندنون لنا قصيدة لنزار قباني عند المساء! لا بد أننا سنعشق هؤلاء الرجال! ولكنني لا أريد أن أستبق الأمور وأنتقل إلى الخلاصة التي أريد إخفاءها، على غرار شهرزاد، وذلك لإثارة فضول شهريار، المسحور والأسير، حتى بلوغ الألف صفحة وصفحة.

الفصل الثاني

هل بشير العلج على صواب؟

إن بشير العلج، الممثل المغربي القدير، والكاتب المسرحي، والخبير في اللغة الدارجة، على صواب حين يؤكد في حوار من الفيلم الكوميدي «البحث عن زوج امرأتي» لعبد الرحمن التازي أنه لم يعد ممكناً أن يجد الرجل في المغرب فتاة مطيعة تصغي لخطيبها دون معارضته. ويجيب العلج رداً على الرجل المزواج الذي جاءه يشكو من استحالة العثور على زوجة ثالثة مطيعة، «تخفض عينيها» (عينيها محنيتان)، أن النساء المطيعات غير موجودات في أيامنا هذه. وعندما يضيف قائلاً: «كلهن يخرجن من بطون أمهاتهن وعيونهن مفتوحة»، ينفجر الحضور في صالة العرض ضاحكين. وقد تساءلت مراراً عن سبب النجاح المنقطع النظير لهذا الفيلم، والإقبال الشديد للنساء والرجال على حضوره وخروجهم من العرض وهم يقهقهون ضاحكين. وأعتقد أن أحد الأسباب هو أن المغاربة قد تطوَّروا وصاروا يشعرون بالارتياح إزاء حداثة تذهلهم.

يشعر الرجال المغاربة بالارتياح إزاء عصر يطلب استبدال الجمود بالمرونة، والشك باليقين، والفَلَقَة (وهي عصا مربوطة بحبل كانوا يوثقون بها أقدامنا في الكتّاب قبل أن ينهالوا علينا بالضرب) بالابتسامة. ويتكون لدينا الانطباع، لدى سماعنا قهقهات الرجال في هذا الفيلم الذي يهزأ من رغبة التسلط، أننا قد اجتزنا مسافات بعيدة وبلغنا تخوم هذا الكوكب الذي يجعلنا نتعثر قليلاً في خطانا، ولكنه لا يخيفنا بعد اليوم، وأن النساء والرجال، في خضم خمسين عاماً من الاستقلال، قد أعادوا اكتشاف بعضهم البعض وتقاربوا بحنان جديد بالرغم من التوتر والخصام.

يتراءى لنا أن النساء والرجال قد أجمعوا على تغيير خطابهم بعد صدمة حرب الخليج التي كان ضعفنا فيها جميعاً، حكاماً ومحكومين، لا يطاق.

فأمام الخطر والهلع، وضع الرجال والنساء الفوارق بين الجنسين جانباً، وأدركوا، إذ تسمَّرت عيونهم على شاشات الفضائيات الأجنبية، أن الكوكب قد أصبح صغيراً، وأن الحوار مع الآخرين ضروري، فلمَ لا يكون هذا الحوار مع الأقربين؟ ولم تعد معرفة من يسيطر على الآخر مسألة جنس، ذلك أن الإبادة الثقافية تتربص بكل الذين لم يتعلموا مبادىء الحوار. لقد أصبح الرجال والنساء ينظرون ويصغون إلى بعضهم البعض، وقد

فوجئوا لاضطرارهم إلى السير معاً، لا من أجل العيش بسعادة إنما بهدف البقاء فقط.

في فترات الأزمة والبطالة هذه، يتنزَّه المغاربة المتزوجون حديثاً أيام الآحاد، وقد تشابكت أيديهم، والأب يحمل طفله فخوراً. تلك هي الصورة الجديدة التي يطالعنا بها هذا المغرب الحديث الذي يتراءى لنا، بعين على الصحن اللاقط، وأخرى على الطاجن. ولقد أسرَّ لي طالب تزوج حديثاً، «بالتقسيط»: «لقد بدأ الغرب لتوه يعرف سياسة شد الأحزمة التي تعتبر تقليداً في مجتمعنا». لقد وعد هذا الشاب بدفع أقساط شهرية لحموه حتى تسديد الصداق المقرر، وسوف تسهم العروس سراً في تسديد الأقساط الشهرية، وقد أوضحت لي قائلةً: «المهم أن نعيش معاً. لقد كان ذوونا يعقِّدون حياتهم، أما نحن فعلينا الابتكار من أجل البقاء». والشيء الأكيد أن التواطؤ هو أساس زواجهما، فالشباب يتضامنون لمواجهة الأزمة، وأعتقد أن التعويل على التعليم المجاني للجميع، على الأقل في المدن، يعتبر من الأمور التي سوف تنقذ المغرب غداً. ولقد انقضَّت النساء على هذه الفرصة كخشبة خلاص.

وإذا كان توفير التعليم، والحق في العمل لقاء أجر، وذكر المساواة في النصوص التأسيسية معايير للحداثة، فالمغرب قد قطع أشواطاً كبيرة في هذا المجال. لقد كان

نص الدستور المغربي لعام 1992 من بين الوثائق التي وزعت خلال اجتماع الغات[1] الذي عقد في مراكش في شهر نيسان 1994، وقد أمكن للموفدين الأسوجيين والنروجيين أن يقرأوا في هذا النص ما يلي:

الفصل الثامن

الرجل والمرأة متساويان بالتمتع في الحقوق السياسية.
لكل مواطن ذكراً كان أم أنثى الحق في أن يكون ناخباً إذا كان بالغاً سن الرشد ومتمتعاً بحقوقه المدنية والسياسية.

الفصل الثاني عشر

يمكن لجميع المواطنين أن يتقلدوا الوظائف والمناصب العمومية وهم سواء فيما يرجع للشروط المطلوبة لنيلها.

الفصل الثالث عشر

التربية والشغل حق للمواطنين على السواء.

وإذا كانت نساء المملكة المغربية لا يفلحن في تحقيق الوعود المنصوص عليها في الفصل الثامن، ذلك أن امرأتين فقط قد وصلتا إلى المجلس النيابي (وهما السيدتان بديعة الصقلي ولطيفة بناني سميرس)، يسعنا

---

(1) «الغات» ليس صنفاً من الحلوى بل «الاتفاقية العامة للتعرفة الجمركية والتجارة» التي يمكن أن نترجمها بأمانة إلى العربية الدارجة «سوق الشطارة».

القول إنهن قد استفدن إلى أقصى حد من الفصل الثالث عشر (وللأسف، لم ترفع الإنتخابات التشريعية الأخيرة عدد النساء في المجلس النيابي! فلا زلن اثنتين! الله يراد بينا!).

لقد تابعت المغربيات تحصيلهن العلمي منذ الستينيات ونجحن في تغيير المشهد الثقافي في البلاد في أقل من ثلاثين عاماً: فثلاثون في المئة من أساتذة التعليم الثانوي هم من النساء (8050 من أصل 26689 أستاذاً). ولا يقتصر الأمر على التعليم الثانوي فحسب[2]؛ فعندما ينتسب شاب مغربي إلى الجامعة، هناك احتمال من أصل خمسة أن يقوم بتدريسه أستاذ حليق الذقن، يرتدي تنورة أو جلباباً أنيقاً مشقوقاً عند الزوايا، ويضع أقراطاً في أذنيه، ذلك أن المغرب يعد من البلدان التي تضم عدداً مرتفعاً من النساء اللواتي يشغلن منصب أستاذ في الجامعة أو في المعاهد العليا.

والجدير بالذكر أن خُمس الأساتذة الذين يدرِّسون في أرقى المؤسسات الجامعية أو المعاهد العليا يضعون أحمر الشفاه ويحملون حقيبة يد[3]. وفي الواقع، تمثل النساء

---

(2) Le Maroc en chiffres, 1992, p. 24

(3) وهي حقائب يد كارتييه مقلَّدة على الأرجح، ومصنوعة في المغرب، لم يعد بالإمكان شراؤها بعد أن قرَّر السيد ميكي كانتور «الممثل التجاري الخاص» الأميركي وزملاؤه الأوروبيون إعلان الحرب على التقليد. فيا =

نسبة 22٪ من الأساتذة الجامعيين في المغرب[4]. وتتقدم المغربيات على البريطانيات (20٪) والسويسريات (11٪) واليابانيات(16٪)[5]. وتشير الإحصائيات المتوافرة لدى منظمة اليونسكو لعام 1992 أن نسبة النساء في الجسم التعليمي العالي تبلغ 22٪ في ألمانيا الاتحادية سابقاً، و26٪ في الولايات المتحدة، و27٪ في فرنسا[6].

لقد انتشر التحصيل العلمي انتشاراً واسعاً بين النساء في العالم العربي. فأكثر من 30٪ من الطلاب المنتسبين إلى الجامعات والمعاهد الدراسية العليا هم من الإناث. وتصل هذه النسبة إلى 34٪ في الجزائر، 33٪ في مصر، 38٪ في العراق، 39٪ في تونس، 40٪ في السودان، 31٪ في فلسطين، و44٪ في قطاع غزة. وكلما اتجهنا شرقاً، تضاءلت فرص العثور على عروس شابة أمية وبالتالي خاضعة. ولم تهدر الفتيات وقتهن في جمهورية اليمن

= سيداتي الكريمات، حافظن على حقيبة اليد كارتييه التي تملكنها واحرصن عليها لأننا سنعود قريباً إلى عصر جداتنا اللواتي لم يكنَّ يملكن حقيبة يد. سوف نعود إلى عصر «الجيب» أو «القِباب» قبل كارتييه رحمه الله.

(4) Le Maroc en chiffres, 1992, p. 24

(5) *Annuaire Statistique de l'UNESCO*. 1992. Tableaux 3.12 sur "Enseignement du troisième degré: personnel enseignant et étudiants".

(6) *Annuaire Statistique de l'UNESCO*. 1992. Tableaux 3.12 sur "Enseignement du troisième degré: personnel enseignant et étudiants".

الجنوبية الديمقراطية (سابقاً) إذ يمثلن 42٪ من الطلاب المنتسبين إلى المعاهد الدراسية العليا، وتصل هذه النسبة إلى 48٪[7] في كل من سوريا والأردن. أما في دول الخليج التي يسود الاعتقاد أن الرجال فيها على شاكلة هارون الرشيد بسبب أموال النفط، تنتقم النساء بالإقبال الشرس على التحصيل العلمي: 43٪ في السعودية، 54٪ في البحرين، وتصل هذه النسبة إلى 57٪ في الكويت من مجموع طلاب المعاهد العليا[8]. أما المجزرة الحقيقية فتشهدها الإمارات العربية المتحدة إذ تبلغ نسبة الإناث 70٪ من طلاب الجامعات والمعاهد العليا.

أما لدى الفرنسيين الذين هم أكثر تحرراً، فنسبة الطالبات الجامعيات أقل، وتبلغ 53٪، مقابل 41٪ في ألمانيا الاتحادية سابقاً، و 48٪ في إيطاليا، ولا تتجاوز هذه النسبة 54٪ في أسوج[9]. وبالتالي، يجب أن يعيد أمراء النفط النظر في سياسة «الحرمنة» المنهجية التي يطبقونها حيال الإناث، وأن يعتمدوا السياسة الذكية التي يطبقها السويسريون الذين يملكون أقل نسبة انتساب للإناث إلى التعليم العالي 35٪[10]، دون أن يبذلوا جهداً

(7) *Annuaire Statistique de l'UNESCO*. 1992. idem
(8) *Annuaire Statistique de l'UNESCO*. 1992. idem
(9) *Annuaire Statistique de l'UNESCO*. 1992. idem
(10) *Annuaire Statistique de l'UNESCO*. 1992. idem

أو ينفقوا الأموال لبناء الحريم. وينجح السويسريون الأذكياء في إبقاء النساء بعيداً عن الجامعات دونما حاجة إلى الأحجبة والأقفال. فما هو سرهم؟ الله أعلم. والمؤكد أن الأسلوب المتشدد لأمراء النفط لدينا سوف ينقلب ضدهم: فكلما أمعنتَ في تكبيل حرية المرأة العربية، انصرفت هذه المرأة إلى تحصيل العلم. وكلما تعلمت السيدات العربيات، أصبحن لا يُطقن، أي أنهن يقطعن حديثكم حين تتفوهون بالحماقات. ويجب السعي لتصنيع نساء صامتات وخاضعات يصغين بانبهار دون أن ينبسن ببنت شفة. وهذه نصيحة جيدة للمقاولين والمقاولات الشبان، لأن الزبائن المحتملين كثيرون جداً على ضفتي المتوسط. ويقوم الرجال الأوروبيون أصلاً (الألمان على وجه الخصوص) باستيراد زوجات من تايلاند أو دول آسيوية أخرى حرصاً منهم على أن تكون الطاعة في المنزل من طرف واحد بما أن الألمانيات يتمسكن بحق التعبير.

ما العمل حين تعيشون في بلدٍ تتحرر فيه النساء؟ لن يساعدكم الحلم بالحريم على تحقيق السعادة. وأقترح عليكم الوصفة السحرية التالية: إحفظوا عن ظهر قلب الألفاظ الستين التي ورثتموها عن أسلافكم للتعبير عن «الحب» بالعربية.

الفصل الثالث

ما السبيل لإغواء النساء المتحررات؟

ردِّدوا على مسامعهن الألفاظ الستين لتقولوا «أحبك»

من بين الثروات التي يملكها العرب، هناك ستون لفظاً من تراثهم اللغوي يمكن لها في هذه الأوقات العصيبة من إعادة التوازن الدقيق إلى العلاقات بين الجنسين، أن تعود بفائدة جمة على الجميع. فقد بذل إبن قيِّم الجوزية، وهو مفكر عاش في القرن الرابع عشر (وتوفي عام 751 هجري) جهداً كبيراً في دراسته الرقيقة عن الحب «روضة المحبين»، لإحصاء ستين لفظاً لقول «أحبك» بالعربية[1].

وقد لاحظ إبن قيِّم الجوزية الذي كان يتمتع بفكر تحليلي في غاية الرهافة، أن توافر هذا العدد الهائل من الألفاظ الدالة على الشيء عينه لا يبشر بالخير، «وأن ثمة في الأمر خطباً». وقد أوضح أن العرب لا يتفننون في التسمية الجامحة إلا في ما يتعلق بمفاهيم شائكة تستعصي

(1) إبن قيِّم الجوزية، «روضة المحبين»، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان. 1977، ص. 16.

على الفهم (ما اشتدَّ الفهمُ له)، أو خطرة على قلوبهم (أو كثر خطُورُه على قلوبهم). ويضيف أن إطلاق كل هذه الألفاظ على مفهوم واحد هو أسلوب في الاحتفاء بظاهرة حضارية مهمة في مطلق الأحوال (تقدُّماً له). ونحن بأمسِّ الحاجة، أكثر من أي وقت مضى، إلى علمائنا الذين سعوا لفهم الحب والغوص في متاهات العواطف. ويمكن لابن قيِّم الجوزية أن يسعف معاصرينا الحائرين بسبب كل هذه التحولات والمجرّات الجديدة التي لا تنفك تتجلى أمام أنظارهم. ولكم تسهم إعادة قراءة هذه الألفاظ الستين بتهدئة الخواطر في عصرٍ نعاني فيه من وطأة التلفاز واجتياحه حياتنا بحيث صرنا لا نملك الوقت لتبادل التحية. ويحاول إبن الجوزية شرح دلالات كل لفظ من هذه الألفاظ التي يتسم معظمها بإيحاءات انتحارية، ويعكس صورة سقيمة للحب الذي يشل عن الحركة (الكمد، اللذْع، الخ...) مما قد يدفع بنا إلى عيادة الطبيبين بن شقرون أو جليل بناني (وهما طبيبان نفسيان مشهوران في الرباط أفضِّل شخصياً لقاءهما في قاعات المؤتمرات)! ولكنكم تستطيعون أن تضعوا جانباً الألفاظ القاتلة، وأن تحسنوا استخدام البقية لأن الخيار واسع بالرغم من أن المؤلف يشير إلى أنه لم يذكرها جميعاً، وبمقدوركم أن تضيفوا إلى القائمة ألفاظاً أخرى. ولكن ماذا نفعل بهذه القائمة؟ أموراً كثيرة من بينها تلك التي

أقترحها للكسالى أو للذين يفتقرون إلى الخيال.

أقترح عليكم أولاً نسخ هذه الألفاظ وتحويلها إلى تمائم قد يكون لها مفعول سحري إن دُسَّت تحت وسادة الحبيبة. ويمكنكم أيضاً أن تلقنوا الحبيبة لفظين كل مساء، وقد تصبح جاريتكم بملء إرادتها، فتصغي إليكم دون كلل طوال المدة التي تستغرقها نشرة أخبار الساعة الثامنة والنصف مساءً (لا أستطيع قط متابعة نشرة الأخبار المسائية حتى النهاية حين أكون في الرباط. فهل يعزى ذلك إلى عامل فني، لا سيما الحركة المملة للكاميرا أم إلى الجوع الذي نشعر به عند الساعة الثامنة والنصف مساءً؟ إنه لغز محير آخر).

وهناك وصفة أخرى أكثر صعوبةً بقليل: إنظموا قصيدة تتضمن ثلاث عبارات غرامية والقوها على مسمع الحبيبة ساعة الغسق. فلا يسعكم أن تتخيلوا كم أن النساء العصريات رومنسيات، لأن المسكينات يعانين من الضغط والإرهاق بحيث أن قليلاً من الشعر، وإن كان تافهاً، يسمعنه في البيت وهن يتناولن البيتزا، يغمرهن بالسعادة (ويجدر بالقيِّمين على مطاعم «بيتزا هات» أن يبيعوا قصائد قصيرة للأزواج المحبين الذين يريدون أن يظهروا مدى رقيِّهم مساء السبت! وهذه وسيلة «لمغربة» هذه البيتزا الأميركية!).

لا أريد أن أسبب لكم الهلع أيها السادة المغاربة،

فأنتم تعيشون في بلد متحضر، ونساؤكم على درجة عالية من التحصيل العلمي، وحتى النساء الأميات يجنين المليارات من عملهن في الزراعة أو صناعة النسيج، أو «حلمتي المغرب» حسب التعبير الفرنسي اللذيذ.

وتشكل الصناعة الغذائية والصناعة النسيجية القطاعين الاقتصاديين اللذين يتيحان للمغرب غزو السوق الأوروبية، مع العلم أن عاملاً من أصل خمسة هو امرأة! ومن أصل 13 مليون امرأة مغربية (أضيفوا ثلاثة أو أربعة ملايين إلى عدد السكان الإجمالي البالغ 25 مليون نسمة، وسوف تحصلون على الرقم الصحيح تقريباً)، بلغت نسبة اليد العاملة النسائية 23٪ عام 1992[2]. وبالتالي، ليس منطقياً ولا عقلانياً تصور هؤلاء النساء خاضعات ومقموعات في حين يعتبرهن المغرب عاملاً استراتيجياً لتصدير المنتجات الزراعية والألبسة التي تتمتع بقدرة

---

(2) Le Maroc en chiffres. 1992, p. 14

لقد أصبتم في حساباتكم، فقد فاق عدد النساء عدد الرجال في المغرب استناداً إلى الإحصاءات الأخيرة، ويوجد 12 مليوناً و529 مغربياً مقابل 13 مليوناً و 18مغربية. فيا أيتها النساء المتزوجات، والحمد لله، يجب أن تبدين بعض التفهم لأن العثور على زوج أصعب من تسلق للاّ شافية. ولغير الفاسيين، للاّ شافية هي القديسة المدفونة قرب مولاي يعقوب، ويقع مزارها على قمة جبل، وتسلق جبل للاّ شافية يجلب الحظ للفتيات اللواتي يردن الزواج. فلنشن هجوماً على للاّ شافية، بل يمكننا إنشاء مشروع سياحي قرب مزارها، واستحداث فرص عمل في ولاية فاس التي لا تدخر وسعاً لمكافحة البطالة.

تنافسية عالية في السوق الأوروبية وتعدُّ مصدراً للعملة الصعبة.

وعلى الرجال المغاربة أن يتحلوا بالمنطق والعقلانية، ولا شيء يحول دون ذلك، في انتزاعهم لمكان صغير تحت الشمس بحلول العام 2000. وللوصول إلى هذه الغاية (إلى الشمس بالطبع!)، يجب إقامة السواتل؛ ولن يتوصل المغرب إلى تحقيق ذلك ما لم يستغل الأدمغة المتوافرة لديه، بما فيها أدمغة النساء اللواتي يبلغ عددهن 13 مليوناً! (إيوه، فهموني!). فالتطلع إلى حريم من النساء المنفصلات عن العالم الخارجي في حين أن بقاءنا يرتبط بمكافحة البطالة، وتعتبر إزالة الحواجز التجارية، وقيام المنافسة الشرسة بين الدول، اليقين الوحيد لبناء الغد، ليس بالتطلع المثمر على حد قول وزيرنا للتجارة الذي يعرف المنتجات التي تلاقي رواجاً في الأسواق، وهي تلك التي تستقطب اليد العاملة النسائية من منتجات زراعية ونسيجية والكترونية.

وحتى لو وجدتم أنفسكم تحلمون بالحريم وبالجواري كما في العصر العباسي أو بمحظيات السلاطين العثمانيين، فلا ضير في ذلك طالما أنكم مؤمنون بضرورة القضاء على هذا الفيروس. لقد رغب وقام جيراننا في شمال المتوسط، طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بإنشاء أنظمة ديمقراطية قائمة على المساواة والحوار،

بفضل الثورات والثورات المضادة، بينما كانوا يشترون خفيةً لوحات وبطاقات تمثل الحريم! وقد تبادرون إلى الدفاع عن المساواة في المجلس النيابي، أو في خلية الحزب أو النقابة، ثم تعودون عند الساعة الثامنة مساءً إلى بيوتكم، متوقعين من زوجاتكم أن يقمن بتدليلكم كجواري هارون الرشيد، ويصغين دون مقاطعة إلى تأففكم من المتاعب التي صادفتموها خلال النهار.

المهم أن تدركوا وجود مفارقة وخلل، وأن تثوبوا إلى رشدكم، وتمارسوا الرياضة الذهنية الضرورية لإحلال المساواة في حياتكم الزوجية.

أعتقد أننا قد بلغنا في المغرب هذا المستوى، وبات الجميع يسخر من المواقف القديمة التي كانت تشكل القاعدة والتقليد السائد. فالتفكير بالحرم المصون بين الحين والآخر، وسؤالها عن نهارها، وبذل الجهد للإصغاء إليها، أضحى من السلوكيات التي تندرج في أكثر عاداتنا حرصاً وحذراً. ومع ذلك، ليس من الممتع الإصغاء إلى الآخر يتذمر، ويستعرض همومه في العمل، ويشكو من مزاج المدير، وخساسة الزميل، الخ.. وفي الدول الديمقراطية، يدفع المواطن ثمن الإصغاء باهظاً، بدءاً من 400 فرنك فرنسي لثلاثين دقيقة (على ما أظن) في ما يعرف «بجلسة التحليل النفسي». ولا بأس من أن ترغب بأن تصغي شريكة حياتك لساعات طويلة إلى

همومك طالما أنك تدرك بأن هذه الخدمة تدر المليارات في دول أخرى. ولن يكون تصرفاً غير لائق أن تدسَّ يدك في جيبك لتعوض ببضع مئات من الدراهم على المرأة المسكينة. ولا أرى شخصياً غضاضةً في أن يدفع لي الأشخاص الذين يضجرونني بهموم ومتاعب لا ناقة لي فيها ولا جمل ثمن ساعة الإصغاء، وقد أكتفي بتقاضي 25٪ من تسعيرة جلسة التحليل النفسي الباريسية. ولنا أن نتخيل بالطبع أن بيع «ساعة إصغاء مكفولة دون مقاطعة أو معارضة» قد يصبح وسيلة مثمرة في بلد يعتقد فيه الجميع أنهم على صواب، وهذا ميدان لا يزال بكراً يجب التفكير به تفكيراً جدياً لإيجاد فرص عمل في المستقبل (فأنا مصدومة من الغات ومن ضرورة الخوض في منافسة مع الكوريين والصينيين، فضلاً عن الأميركيين والألمان بالطبع! وكل هذه المزاحمة تثير قلقي!).

ولكن لنعد إلى الحريم في دول شمال المتوسط.

في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر، كان الفرنسيون يثورون في الشوارع مطالبين بالمساواة للجميع. وقد انتصرت هذه المساواة هنا وهناك إلا في مجال اقتناء لوحات الحريم: وكان المواطنون الأثرياء وحدهم قادرين على شراء هؤلاء المحظيات الرقيقات الألوان، أما الفقراء فكانوا يتكلون على مخيلتهم وحدها إلى أن عرفت الأنظمة الديمقراطية في أواخر القرن التاسع

عشر آلة التصوير كوداك، وسوف تتيح هذه الآلة الفرصة للجميع في اقتناء المحظيات.

لقد أمضى أعظم الفنانين الأوروبيين - على غرار جان-أوغوست - دومينيك إنغر (1780 ـ 1876) الذي لم تطأ قدماه قط بلداً مسلماً - سنوات عديدة يصوِّرون الحريم في مراسمهم بروما وباريس وغيرها من المدن الأوروبية من أجل النخبة من الزبائن. وكان البرجوازيون الأثرياء يتنافسون على شراء هذه اللوحات بأسعار باهظة، ويتصارعون في مجلس الشيوخ من أجل حقوق الإنسان والمواطن. وغالباً ما كانت أشهر المتاحف تقتني لوحات الحريم هذه كمتحف اللوفر الذي اشترى لوحة «الحمَّام التركي» (1862) لإنغر، وكذلك صار بإمكان كل شبان الجمهورية الفرنسية، المتخمين من الخفر الكاثوليكي، والمحرومين من العري الأنثوي (لا حمَّام مع الماما قبل سن البلوغ!)، بدءاً من من عام 1862، وبين نشيد وطني وآخر، أن يمتعوا أنظارهم، إذ يقتحمون بجرأة حمَّاماً تركياً تظهر فيه جواري السلطان العثماني، عاريات تماماً، لا تزينهن سوى العقود والعمائم.

لقد وجهت آلة التصوير كوداك ضربة قاسية إلى تجارة الفن المزدهرة بالنسبة إلى الكثير من الفنانين لأنها أتاحت تقليد أعمالهم واستنساخها. وكانت هذه النسخ المقلدة باهتةً ولكنها تبقى تقليداً بالرغم من كل شيء. وقد تمكن

البعض منهم، كجان ليون جيروم (1824 ـ 1904) من إدخال آلة التصوير كعنصر من عناصر اللوحة، وحققوا المزيد من الشهرة والنجاح. وقد استعمل جيروم آلة التصوير في أعماله، مصوِّراً المشاهد خلال أسفاره، ومستفيداً منها إثر عودته إلى مرسمه لتحديد التفاصيل، وهو مجال كان يبرع فيه[3]. وخلافاً للفنانين الآخرين الذين لم تطأ أقدامهم الشرق الأوسط، زار جيروم مصر عام 1856، ثم قصد تركيا وفلسطين والجزائر. وقد تخصص هذا الفنان في رسم الرقيق كما تعبر لوحته الشهيرة «سوق النخاسة»، حسب ما أورد إدوارد لوسي-سميث في كتابه «الجنس في الفن الغربي»، ويضيف المؤلف قائلاً: «تحت غطاء الاستشراق، كان المشاهد الرجل يستطيع، متسربلاً في برنس الشخصية الأساسية في اللوحة، أن يلامس بأصابعه ثغر امرأة شابة عارية بقدر ما هي خاضعة»[4].

كان جيروم بارعاً على جميع المستويات، وقد جنى ثروة طائلة من هذا التمازج بين اللوحات وصورها، كما

---

(3) Alev Lytle Courtier. *Harem*. Abbeville Press, New York, 1989, p. 183.

(4) Edward Lucie-Smith. *La sexualité dans l'Art Occidental*. Thames and Hudson Sarl, Paris, 1991, p. 126 (Titre original *Eroticism in Western Art*, paru en 1972 chez Thames and Hudson, Londres).

استفاد من علاقاته العائلية (كانت زوجته ماري غوبي إبنة تاجر التحف الفنية الشهير أدولف غوبي)، ومن التكنولوجيا (آلة التصوير المتطورة)، وترى لين ثورنتون، الخبيرة في الفن الاستشراقي: «لقد حقق جيروم مكاسب هائلة من ترويج الصور الضوئية المحفورة والصور الفوتوغرافية للوحاته ومنحوتاته بفضل حموه الذي روَّج لها في كل أنحاء العالم؛ كما استفاد من تهافت هواة جمع اللوحات الفنية الأميركيين، الذين كانوا يثقون ثقة عمياء بأدولف غوبي، على شراء أعماله».

ولقد استمرت الرغبة بلوحات الحريم لدى الأوروبيين حتى القرن العشرين. ورسم بيكاسو حريمه عام 1905، ثم عاود الكرة عام 1955 في لوحته «نساء الجزائر». أما ماتيس فقد جمع ثروته من **الحمى الحريمية** في زمن كان الركود الاقتصادي فيه يجبر الناس على التقشف.

الفصل الرابع

ماتيس أو باشا طنجة

في عام 1912، كان ماتيس يهزأ من رجال طنجة لأنهم غير نسويين. وكان يعتبر نفسه بالطبع متحضراً جداً في هذا المجال، ومواكباً للتقدم في مسألة المساواة بين الجنسين، ذلك أن هذه المسألة كانت مطروحة على بساط البحث في مجتمعه. ولكننا سوف نرى بأن عزيزنا ماتيس الذي ورث «الديمقراطية»، على غرار جميع مواطني الجمهورية الفرنسية التي كانت تثير الحيرة والبلبلة في أذهان أبنائها، إذ تعلمهم أن الاستعمار رسالة حضارية مشرِّفة، لم يكن يطيق الفرنسيات المتحررات إلا حين يرسمهن على هيئة المحظيات، جواري هذا الشرق الذي كان ينَدِّد برجعيته. ولقد أمضى ماتيس حياته يرسم لأبناء بلده مواطنات ينتمين إلى هذه الجمهورية الفرنسية نفسها، ويعرفن بلولو ولوريت وأنطوانيت وهنرييت، متنكرات بزيِّ زهرة، الطنجاوية الوحيدة التي تسنى له أن يلتقيها لقاءً خاطفاً، في ظروف استثنائية وبالغة التعقيد. ولذا أستأذن قارئاتي وقرائي في إطلاق لقب «باشا طنجة» على ماتيس لأن هذه المدينة قد ألهمته أفكاره حول الحركة

النسوية، وكان حينئذ في الثانية والأربعين، ويزور المغرب للمرة الأولى.

ويعتبر ماتيس مذهلاً لأنه إنساني ومرهف الحس، يحدوه، على غرار كل الفنانين العظماء، ذلك السعي المتواصل لفهم ذاته، وسبر أكثر الأسرار غموضاً التي تواجه كل إنسان: الذات. وكجميع الأوروبيين في القرن الذي عاش فيه (وأذكركم بأن هذا القرن هو القرن العشرين)، كان يتميز في بادىء الأمر، بغطرسة المستعمِر الذي يشيِّد لنفسه مغتبطاً عرشاً إنطلاقاً من الاختلاف الثقافي. فقد تسرَّع في البداية في السخرية من المغاربة الذين لم يكونوا متقدمين جداً في قضية المرأة. وفي 22 شباط/فبراير 1912، أرسل بطاقة بريدية إلى جرترود شتاين التي كانت في ذلك الوقت أكثر الشخصيات المحترمة في الحركة النسوية. وتمثل هذه البطاقة امرأتين من الريف المغربي تنوءان تحت أكياس الفحم، وقد أرفق ماتيس بالبطاقة الملاحظة الساخرة التالية حول المغرب: «إنه بلد ليست النسويات معروفات فيه على الإطلاق للأسف لأن الرجال يتمادون»[1]. وبعد بضع سنوات،

(1) Jack Cowart. *Matisse's Moroccan sketchbooks and drawings: self discovery through various motifs, Matisse in Morocco.* National Gallery of Art, Washington 1990. note 59, p. 153, وتوجد صورة للبطاقة البريدية نفسها في الصفحة 227 مع الرسومات الأولية.

شهدت صداقته مع جرترود شتاين فتوراً. فما سبب هذا الجفاء؟ لقد تعددت الأسباب ومنها أنها بدأت تفضل عليه خصمه الكبير، الإسباني بيكاسو، أو أنها لمست لديه تمادياً ترافق مع نجاحه، وبدأت تردّد لنفسها: «لقد صارت تشعر أن نجاح ماتيس قد أدى إلى تراجع المشاعر الجياشة التي يحملها في قرارة نفسه، والتي يعود لها الفضل في بدايات نجاحه؛ وقد أصبح الآن يتقبل تقاليده الخاصة ويكرّر»[2]. والشيء الأكيد أن ماتيس قد رسم الكثير من المحظيات في كل الأوضاع الممكنة والمعقولة، وأحدث تأثيراً عميقاً في المتخيل العام والذوق والنزعات الرائجة، لأنه عرض المحظية والأمَة الأسيرة في سوق الفن على أنها مثال للأنوثة!

وكان ماتيس الذي وجد الرجال المغاربة بعيدين عن الحركة النسوية لا يجد حرجاً في أن يجني أموالاً طائلة، وهو المواطن الفخور بجمهورية فرنسية كانت من أوائل الأمم التي ألغت العبودية عام 1794، من بيع العشرات من لوحات المحظيات في سوق الفن، وفي خضم القرن العشرين، في الوقت الذي كانت النساء الأوروبيات يناضلن من أجل حقوقهن.

(2) John Malcolm Brinnin *The Third Rose: Gertrude Stein and her world* Radcliff Biography Series n° 5880. A Merloyd Lawrence Book. Addison Wesley. date not indicated. p. 92.

والمهم أن المحظية، تلك المرأة التركية التي كان ماتيس يرسمها حبيسةً في حريمها في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، كانت تتعلم وتنال الشهادات العلمية. وقد كانت الثلاثينات سنوات لا تنسى بالنسبة إلى النساء التركيات، فقد أصبحت ثريا آغا أوغلو المرأة الأولى المحامية في بلادها، وصبيحة غوكتشن، المرأة الأولى التي تقود طائرة[3].

لقد شهدت تركيا التي يتخيلها ماتيس جامدةً تحولات اجتماعية جذرية بارزة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد أنشأت الدولة المدرسة الأولى للإناث منذ عام1860. ونص قانون صادر عام 1869 على إلزامية التعليم للذكور والإناث حتى سن الثانية عشرة؛ وشكل كل ذلك جزءاً من حركة إصلاحية بارزة تعرف بحركة تنظيمات[4]. وقد ألغي آخر حريم عام 1909، وهو حريم السلطان عبد الحميد الذي خُلع عن العرش في السنة المذكورة. كانت تركيا العشرينات والثلاثينات تتحول وتعيش على إيقاع حركة «الأتراك الشباب» الذين عقدوا العزم على دفع بلادهم في طريق الحداثة. وفي عام 1923، أعلن مصطفى كمال أتاتورك الجمهورية، وأعاد

---

(3) Sarah Graham Brown. *Images of women*. op.cit. pp. 165-167.

(4) Sarah Graham Brown. *Images of women*. op.cit. chronologie. p. 10 de l'introduction.

النظر بقانون الأحوال الشخصية لا سيما القوانين المتعلقة بحقوق النساء[5].

وخلاصة القول، يجب دائماً التمييز بين مستويين من الحقيقة: الحقيقة التي تصنعها المرأة (النساء التركيات اللواتي يتعلمن ويصبحن محاميات وطيارات عام 1930)، والاستيهام الذي يشكل جزءاً من واقع الرجل (المحظية التي هي جزء من ماتيس، المواطن الفرنسي الذي كان حياً يرزق عام 1930). وأعتقد أن هذا التمييز جوهري لأنه يتيح لنا فهم التداخلات والإسقاطات النفسية بين أمرين يضاهي أحدهما الآخر غموضاً: الخوف من الجنس الآخر، والخوف من الثقافة الأخرى. ولتبسيط الأمور، يمكننا القول إن ماتيس، وفيما كانت المرأة التركية عام 1930 تشعر بحاجة ملحة للتعلم وتحقيق ذاتها في العمل، كان يشعر كذلك بحاجة ملحة لاستعباد هذه المرأة التركية. لقد كان متمسكاً بمحظيته ولا يكترث للمرأة التي تقود طائرة أو المرأة المحامية. فقد كانت هاتان المرأتان تتطفلان على عالم أراد بناءه ليحقق التوازن الذي كان بحاجة إليه للإبداع. ولم يتغير الوضع كثيراً منذ أيام ماتيس: ففي أعقاب حرب الخليج، تلقيت اتصالاً من صحافية في المجلة الفرنسية «ماري كلير» طلبت إجراء

(5) Sarah Graham Brown. *Images of women*. op.cit. chronologie. p. 11 de l'introduction.

مقابلة معي حول موضوع الحريم. وعندما قلت لها إنني أفضل أن تسألني عن كتابي **الخوف من الحداثة: الإسلام والديمقراطية**، المستوحى من حرب الخليج والذي كان قد صدر حديثاً في باريس، أجابتني هذه الصحافية أن المجلة لن تغطي تكاليف رحلتها إلى المغرب ما لم أوافق على التحدث عن الحريم. وقد شرحت لها أنني لن أمانع الإدلاء بحديث صحفي عن الحريم لدى صدور كتابي **نساء على أجنحة الحلم** الذي يتناول هذه المسألة، ولكنني أفضل بعد صدمة الحرب أن أتحدث عن كتابي حول الخليج: وقد أسرّت لي هذه الصحافية أن رئيسها يعتقد بأن الحريم يمثل الزاوية الوحيدة المهمة للحديث عن المرأة المسلمة.

وعلى غرار ماتيس في العشرينات والثلاثينات، لا يزال الكثير من الرجال الغربيين يحتاجون إلى المحظيات. ولا يجب لومهم على موقفهم هذا، فأنا أجد، بصفتي امرأة، أن كل إنسان يملك حرية الاستيهام، وكون الرجل الغربي يتمسك بالمحظية ليس مبرراً لتهرب الرجل الشرقي وتنصله منددأ بالعنصرية.

وتثير البطاقة البريدية التي أرسلها ماتيس عن الحركة النسوية الاهتمام. وأنا لم أذكرها من أجل إعطاء المبررات للذين يريدون مناهضة العنصرية بصورة بدائية على نحو «لا يحق للأوروبيين أن يقدّموا لنا الموعظة» لأنني أرى

هذا الأسلوب في رفض النقد طفولياً وكذلك التقوقع في نرجسية تبليدية. وقد برزت مثل هذه المواقف بعد صدور الدراسة الفريدة التي قام بها ادوار سعيد عام 1978 بعنوان **الاستشراق**، ويحلل فيها الكاتب تحليلاً دقيقاً وعلمياً الكليشيهات الغربية عن الشرق. وغالباً ما قدَّمت هذه الدراسة التحليلية للعرب الحجج «لإضعاف» الانتقادات، وأعطتهم الفرصة للتبلُّد في رضى ذاتي لا يخلو من التساهل، ويتسم بالغرور لا سيما وأنه يستند إلى تعتيم جاهل للواقع العربي[6]. ويرى إدوار سعيد أن الاستشراق، «كونه أسلوباً غربياً لبسط الهيمنة على الشرق وإعادة هيكلته والسيطرة عليه»، يجب تفكيكه من أجل فهم الطريقة التي يعتمدها للتجدد من خلال رؤية شخصية أكثر دقةً للأشياء والعالم، مفسحاً بذلك أمام العرب مجالاً جديداً لتحليل أنواع خطابات الغربيين (الفنية والأدبية والسياسية، الخ)[7].

---

(6) Edward Said. *Orientalism*. routlede and Kean Paul. London 1978.

(7) أشير هنا إلى أن السيدة ليلى فرهود، وهي أميركية من أصل لبناني تعيش في الرباط مع زوجها الرسام الفلسطيني كمال بلاطة منذ عام 1993، قد أتمت أطروحة عن الاستشراق كانت تحضرها منذ عام 1996 وعنوانها:
L'espace et l'autre: La peinture orientaliste francaise et britannique du XIXeme siècle. Thèse de Doctorat de 3eme cycle en philosophie esthètique, Université de Paris Panthéon - Sorbonne. mai 1986.

وهذا لا يعني أن ملاحظة ماتيس حول مصير المغربيات الرازحات تحت أحمالهن الثقيلة. وهو الذي كان في موقع قوة عام 1912، بصفته مواطناً فرنسياً يزور المغرب الخاضع آنذاك للاستعمار، تضعُف صحتها. فثمة حقيقة لا يرقى إليها الشك في كلامه، وإغفال هذه الحقيقة إنما يعني استئصال رؤيتها في ذاتنا؛ وبالتالي، الاستمتاع بموقع الشخص الذي لا يلام على شيء، والمشاركة في تعطيل قدراته الخاصة على التجدد والتحول الذاتي. والاختلاف بين ماتيس والطنجاويين الذين التقاهم عام 1912 كان ولا يزال مهماً لجهة وضع المرأة. فبين ماتيس الذي كان يجد من العار أن ينقصم ظهر المرأة تحت حملها الثقيل، وبين الطنجاويين الذين كانوا يجدون ذلك أمراً طبيعياً جداً، هناك رؤيتان مختلفتان جداً لحقوق الإنسان. ولو كنت فلاحة في منطقة طنجة عام 1912، لوددت أن يشاطر الطنجاويون موقف ماتيس. فاستعمال بطاقة ماتيس البريدية كوسيلة لمباشرة عملية تحليل ذاتي هو بالتأكيد استعمال ذكي، بالأمس كما اليوم، والإنسان الذي يرفض النقد لن يستطيع قط الترقي والسعي نحو الأكمل.

لقد أصبح اليابانيون غداة الحرب العالمية الثانية أسياد العالم من خلال تحويلهم النقد إلى مصدر منهجي للمعلومات. فعندما ترسلون استمارة الضمانة المرفقة

بأحد منتجات شركة سوني من أجل طلب تعويض عن عيب ما، تُرسل نسخة من هذه الاستمارة تلقائياً إلى دائرة خاصة تقوم بتحليل الشوائب المذكورة ويستخلص منها المعلومة الضرورية لتحسين الإنتاج.

ويشكل استغلال الأخطاء المرتكبة أحد المفاهيم الأساسية في أسلوب الإدارة management المعروف حالياً تحت إسم الجودة quality، والذي أتاح لليابانيين التفوق على الأميركيين في عقر دارهم. ويتمثل هذا الأسلوب في عملية متواصلة من التحسين والسعي الدؤوب لتحقيق أعلى مستوى من الجودة عن طريق عزل مصدر الخطأ. والهدف من هذا الأسلوب بلوغ المستوى صفر من الأخطاء zero defect[8] الذي تعبر عنه اللغة اليابانية بكلمة kaizen. وهذا هو النهج الذي أهتم به شخصياً، أي بلوغ الكمال باستعمال الأخطاء والانتقادات الشخصية كمصدر للمعلومات. فعندما أواجه نقداً، أياً كان مصدره، داخلياً أم خارجياً، أستوعبه بهدوء، ثم أقوم بالتحليل لاحقاً، ببرودة أعصاب، فأفصل مشكلتي الخاصة عن مشكلة محاوري الذي غالباً ما يستغل عيبي

(8) *Continuous-Improvement Process (CIP): Searching unceasingly for ever-higher levels of quality by isolating sources of defects. The goal: Zèro defects* in "The Quality Impérative", numero spécial du magazine américain "Business Week", janvier 1991. glossaire présenté en p. 19.

للتقدم والسيطرة علي.

وتتيح لنا بطاقة ماتيس البريدية عن الحركة النسوية إعادة كل الأمور إلى نصابها، موقف ماتيس وموقف الطنجاويين، موقف الرجال وموقف النساء. فقد كان ماتيس يملك الحق في التعبير عن رأيه، ولا سيما حق التساهل المتعجرف مع الطنجاويين الذين كانوا لا يجدون ضيراً في أن تنوء نساؤهن تحت أحمال الفحم أو الحطب، كما لا يزال شائعاً اليوم، في حين أن أموراً كهذه كانت تخضع للنقد في مسقط رأسه بكاتو-كامبريزيس Cateau-Cambresis، ودهشته لرؤية نساء الريف المغربي محنيات تحت أحمالهن كانت هي التي تمثل، في ذلك الوقت أي في عام 1912، الاختلاف بين الثقافات وتغيير الذهنية الذي حصل في أوروبا وأعقب كل الصراعات الاجتماعية منذ «شرعة حقوق الإنسان والمواطن عام 1789». وينسى الناس أن المبادىء الكبرى كإنشاء دولة، وشرعات حقوق الإنسان، والديمقراطية، تبدأ من نصوص وقوانين، ومن ثم تندرج في السلوكيات اليومية، وهي عملية تستغرق سنوات عديدة. والتحضر يعني اعتبار الظلم حالة شاذة بكل بساطة. والديمقراطية تعني اعتبار الامتياز والظلم والجور أموراً كريهة تبعث النفور. والقول إنه «من الطبيعي في بلادنا أن تحمل المرأة الأوزار» مرادف للقول إنه من الطبيعي التمثل بأسلافنا في

العصر النيوليتي بدلاً من التقدم في الاتجاه المعاكس، إتجاه المسيرة البشرية العظيمة نحو الأفضل. وترقي الحضارة ما هو سوى هذه التحولات الصغيرة في الأذهان والتي لا يجب الاستهانة بها. فالديمقراطية لا تقوم فقط على حق الاقتراع بل، وخصوصاً، على أن تتقبل أن يفكر جارك، ولا سيما زوجتك، تفكيراً مغايراً، ويعربان عن رأيهما المختلف دون أن يُفسَّر ذلك على أنه فعل عدائي.

ولكن، وبالعودة إلى ماتيس الذي أرسلته لنا السماء، فما كان خطراً من جانب فنان مثله هو الانزلاق من ملاحظة صحيحة ووجيهة (الاختلاف في الموقف من النساء في الحضارة الأوروبية والحضارة العربية) إلى الرضى الذاتي المشوب بالعنصرية. لقد أضحى هذا الموقف اليوم، بفضل الإعلام الغربي، سمة مميزة للخطاب الغربي حول العرب. وبصفتي مناضلة نسوية عربية ألتقي في إطار عملي ككاتبة عشرات الصحافيين الغربيين، لا يسعني إلا أن أفكر ببطاقة ماتيس البريدية كلما لمست، وراء التذمر المعهود من وضع النساء العربيات، ظل المستعمر الصغير الذي يتملى نفسه في مرآته المنصوبة ببراعة والمائلة بحذاقة إلى أكثر الزوايا المشرِّفة.

لقد ذكرت كل ما سبق لأؤكد على أن الآخرين يملكون حق انتقادنا لأنهم خطوا خطوة صغيرة لم نقدم

عليها بعد، ويجب توظيف هذه الانتقادات على غرار اليابانيين كوقود وعنصر مولِّد للطاقة من أجل المضي قدماً إلى الأمام. ولكن الموقف القائل بوجود عرق متفوق وآخر دوني يجب أن يثير استخفافنا وضحكنا ويحملنا على توجيه كل طاقاتنا نحو الأهم، أي تحسين أنفسنا نساءً ورجالاً. ولكن لنعد إلى ماتيس وشرقه.

لقد أغرم ماتيس بالشرق بعد أن زار معرضاً للفن الإسلامي في باريس عام 1903. وقصد الجزائر في رحلة خاطفة عام 1906، وكان العشق من النظرة الأولى لشمال أفريقيا. ثم زار المغرب وهو في الثانية والأربعين من العمر، وكان ذلك في شهر كانون الثاني/ يناير 1912، سنة الانتداب الفرنسي. وقد سافر على متن الباخرة من مرسيليا ودامت الرحلة 60 ساعة[9]. وكان الوصول إلى طنجة صدمة بسبب الأمطار الغزيرة. وكاد ماتيس أن يرحل دون أن يرى النور «الطنجاوي» الرائع كما كان يصفه: «هل يقدر لنا أن نبصر الشمس في المغرب؟ منذ وصولنا يوم الاثنين الساعة الثالثة بعد الظهر، وحتى يوم السبت، لم يتوقف المطر كما في البلدان الحارة. ماذا سيحل بنا؟ قد نعود إلى باريس بحثاً عن الشمس...

(9) Jack Cowart. *Matisse's moroccan sketchbooks and drawings: self discovery through various motifs* in *Matisse in Morocco*. National Gallery of Art. Washington. 1990. note 8. p. 150.

يستحيل علينا الخروج من غرفتنا». هذا ما كتبه على ظهر بطاقة بريدية أرسلها إلى جرترود شتاين في 4 شباط/ فبراير 1912[10]. ولحسن الحظ، ظهرت شمس طنجة مجدداً، فانبهر بها ماتيس الذي كان حبيساً في غرفته في فندق فيلا دو فرانس Villa de France طوال هذا الوقت: «النور بهي ورائع ولكن الطقس متقلب حتى يخال المرء أنه في القطار السريع»[11]. وقد كتب إلى شتاين لاحقاً يقول: «لم أفعل شيئاً حتى الساعة؛ المكان جميل للغاية، ولا أملك أصلاً الوقت هنا للعمل - فلتحيا الإجازة.. سوف نرحل قريباً إلى مدينة فاس التي نتوقع فيها طقساً أكثر دفئاً»[12]. وخلاصة القول إن ماتيس وقع أسير سحر المدينة وجمالها، وقد ألهمه هذا الانبهار بعضاً من أجمل لوحاته التي كانت الأنوثة فيها موضوعاً رئيساً.

وسوف يصبح المغرب أحد مصادر الوحي والإلهام لماتيس لسنوات عديدة. وقد تميزت العديد من المحظيات اللواتي رسمهن بمسحة مغربية بعض الشيء: «في العشرينيات، أنجز ماتيس مجموعة من اللوحات والصور الفوتوغرافية أكثر تقليدية تصور محظيات شبه

(10) Pierre Schneider. *The Moroccan Hinge*, in *Matisse in Morocco*. National Gallery of Art. Washington 1990. note 4. p. 52.

(11) Pierre Schneider. *The Moroccan Hinge*. op.cit. note 8. p. 52.

(12) Pierre Schneider. *The Moroccan Hinge*. op.cit. note 13. p. 52.

عاريات. وفي الأشكال التي رسمها، كان يصور الأقمشة ذات الرسوم الكثيفة التي رآها في المغرب»[13]. وقد واجه على الفور صعوبةً في إيجاد العارضة التي تتوضع أمامه ليرسمها، لأن مقاربة النساء كان عسيراً لا بل مستحيلاً: وعلى سبيل المثال، كان من غير الوارد دخول نساء من «السكان الأصليين» إلى فندق فيلا دو فرانس دون إثارة الفضيحة في كل مكان. وأخيراً، عثرت له إحدى صديقاته، السيدة دافان، على شقة صغيرة كانت تأتي إليها فتاة ليرسمها، ولكنها كفت عن المجيء تحت تهديد شقيقها[14]. وكانت هذه الفتاة تدعى زهرة. وما أن عاد ماتيس إلى طنجة، حاول البحث عنها بمساعدة بعض الأصدقاء، والتقى بها أخيراً في أحد مواخير المدينة! وكان يحرص عليها كعارضة وملهمة لدرجة أنه لم يتردد في ارتياد الماخور من أجل أن يرسمها! وبعد مرور سنوات عديدة، ظلت ذكرى الفتاة الطنجاوية ماثلة في المرسم الباريسي للفنان العظيم. وإثر العودة إلى فرنسا، «رسم ماتيس صوراً لعارضاته الأثيرات أمثال لوريت وأنطوانيت وهنرييت ولولو، ولكنه غالباً ما ألبسهن ثياب

---

(13) Lynn Thornton. *La Femme dans la Peinture Orientaliste*. p. 234

(14) John Elderfield. *Matisse in Morocco: An Interpretive Guide in Matisse in Morocco*. National Gallery of Art. Washington 1990. p. 216 et surtout les notes 66-67, p. 236.

المحظية»[15]. وفي الواقع، كان ماتيس منبهراً بالمغرب لدرجة أنه لفَّ رأسه بمنشفة على شكل عمامة حين كان يعاني من الزكام في أحد أيام شهر كانون الثاني/ يناير 1916، ورسم نفسه على هيئة المغاربة، وأرسل الرسم الأولي إلى صديقه جوستاف مرفقاً بالملاحظة التالية: «ترى في هذا الرسم هيئتي المزكومة التي لم أفلح في تلطيفها لأنني أشعر بالخمود التام؛ لقد قمت لتوي باستنشاق البخار، ووجدت أنني ألوح كالمغاربة بهذه المنشفة التي تعمم رأسي مما أوحى لي بأن أرسم نفسي»[16].

غير أن زمن الخفة سرعان ما ولَّى لأن الأزمة الاقتصادية في العشرينات كانت على الأبواب، وتلوح في الأفق كل الدلائل على الركود الكبير الذي سوف يجتاح أوروبا وأميركا عام 1929. وقد تضرَّر سوق الفن بالدرجة الأولى... ما عدا لوحات المحظيات! ولن يتوقف ماتيس عن رسم هذا النوع من اللوحات حتى الثلاثينات. وكانت محظياته منصرفات إلى ملذاتهن بعيداً عن تقلبات

---

(15) Commentaire de Laura Coyle et Beatrice Kernan à la peinture *Zohra en jaune* (1912. Collection privée. New York) in *Matisse in Morocco*, p. 76.

(16) Jack Cowart. *Matisse's moroccan sketchbooks and drawings: self discovery through various motifs*, in *Matisse in Morocco*. National Gallery of Art. Washington 1990. note 59. p. 153.

البورصة، ممعنات في سعيهن الذي توقف عنده الزمن وراء المتعة والصحبة الذكورية، لأن المحظيات كن دائماً يظهرن في اللوحات وحيدات في خدرهن ينتظرن زيارة فارس الأحلام. وكان الغربي الذي يقتني هذه اللوحات يتماهى بسهولة مع هذا الفارس الغائب، إنما بأثمان باهظة، على غرار زبوني ماتيس، الأميركيين الثريين، ستيفن س. كلارك، والطبيب الشهير بارنز. «بدأت المتاحف الفرنسية في تلك الفترة تسترد لوحات ماتيس، وهو أمر لم تفعله منذ عام 1895. وقد اشترى متحف اللوكسمبورغ في باريس لوحة «المحظية ذات السروال الأحمر» عام 1922، ورفع برنهايم- جون أسعار لوحات ماتيس في معرضه، فقفز سعر اللوحات ذات الحجم المتواضع التي كانت تباع بمبلغ 4800 فرنك عام 1920، إلى 7250 فرنكاً عام 1923»[17].

وفي حين كان الرجال الأوروبيون يشترون لوحات المحظيات في العشرينات، كانت النساء في أوروبا يتعلمن ويتحررن ويطلقن نزعة «الغلاميات». وكانت الصداقة بين ماتيس وجرترود شتاين قد انتهت تماماً[18]، وفرجينيا وولف تشكو أمام جمهورها النسائي أثناء محاضرة ألقتها

(17) Brooks Adams. *Matisse in a different light*. Vogue Magazine. Nov. 1986. p. 277.

(18) Brooks Adams. *Matisse in a different light*. idem

عام 1928، أي السنة نفسها التي أنجز فيها ماتيس لوحة «المحظية ذات السروال الأحمر»، البطء غير المعقول في تطور ذهنيات المواطنين البريطانيين في ما يتعلق بالمساواة بين الجنسين: «أذكركم بأنه توجد منذ عام 1866، مدرستان للإناث على الأقل في إنكلترة، وأنه، منذ عام 1880، أصبح للمرأة المتزوجة الحق في الملكية، وأنه منذ عام 1919 – أي قبل تسع سنوات – أصبحت المرأة تتمتع بحق الاقتراع...»[19].

غير أن هذا الاختلاف في المواقف بين الفنان ماتيس والمناضلات النسويات في عصره لم يقف حجر عثرة بالطبع أمام تقدم أوروبا وتغير الذهنيات. فمن السهل القول إن ماتيس كان معادياً للنساء وعنصرياً لأن هذا الاتهام يغفل الجانب الأهم: فقد كان ماتيس شخصاً يعاني من مشاكل على غرار الجميع، ولكنه كان يبحث عن ذاته، ويريد أن يتغير ويصبو نحو الأفضل والأكمل: «في طنجة... اشتغلت، ساعياً على الدوام وراء الهدف عينه، أي البحث عن ذاتي من خلال

(19) "I remind you that there have been at least two colleges for women in existence in England since the year 1866; that after the year 1880 a married woman was allowed by law to possess her own property; and that in 1919 - which is a whole nine years ago - she was given a vote..." Virginia Wolf. *A room of one's own*. Harcourt. Brace and World inc. 1957. p. 116.

الرسومات المتنوعة»[20].

ولعل هذه الرغبة الفريدة لدى الأوروبيين باقتناء محظيات على شكل لوحات لإماء مستسلمات وصامتات تشكل إحدى الوسائل لعقلنة رغبتهم بالسيطرة، وتجسيد تناقضاتهم من أجل تجاوزها وطردها والسيطرة عليها وتخطيها مما يحيلنا إلى الفكرة الأساسية، وهي أن مناهضة تحرر النساء ليس، كما تصوره الصحافة الغربية، من اختصاص العرب وقدراً محتوماً على المسلمين.

ويبقى أن انبهار الرجال الغربيين بالمحظيات، وهم الذين دافعت حضارتهم أكثر من أي حضارة أخرى عن مبدأ المساواة، يظل لغزاً محيراً. ولكننا، نحن الشرقيين، نشعر كذلك بالانبهار أمام الحريم، نساءً ورجالاً.

فما هو سبب هذا الانبهار؟ ولماذا تولِّد كلمة **حريم** كل هذه الاستيهامات؟

لماذا يحل هارون الرشيد ضيف شرف في أذهاننا كلما خطرت ببالنا كلمة **حريم**؟

---

(20) Jack Cowart. *Matisse's Moroccan sketchbooks and drawings: self discovery through various motifs*. op. cit. p. 149.

الفصل الخامس

هارون الرشيد أو الحريم العربي

يسحرُ الحريم لأنه نقطة التقاء وانصهار لثلاثة من أكثر العوامل المرغوبة في العالم: السلطة والثروة والمتعة. وإذا فصلنا السلطة والثروة وحدهما من جهة، والرغبة من جهة أخرى، لوجدنا أن الرغبة هي التي تشكل أصلاً مصدر الاستيهامات، ولكن الثلاثة معاً تتداخل في كلمة حريم وتولِّد هذا المثلث الساحر، هذا المكان السحري الذي ينصهر فيه الرخاء المادي والغبطة الجسدية والعاطفية. ولئن كانت كلمة **حريم** تثير لدى الجميع فكرة معينة، فكل منا يضفي عليها طابعاً شخصياً لأن الغربيين والعرب لا يحلمون بالحريم نفسه، ويبدو لي أن للنساء، في هذه الضفة وتلك من المتوسط، موقفاً مغايراً جداً عن موقف الرجال بهذا الشأن. وفي كل الأحوال، هذا ما لمسته عام 1995 بعد أن أجرى معي عشرات الصحافيين مقابلات إثر ترجمة كتابي **نساء على أجنحة الحلم** إلى عشرين لغة من الفنلندية إلى اليابانية. وبما أن الكتاب

المذكور يضم مجموعة من القصص المستوحاة من الحريم، فقد عجبت لاختلاف أسئلة الفنلنديين ومواقفهم عن مواقف الإسبانيين أو المصريين، مما حملني على قلب الأدوار، ورحت بدوري أطرح الأسئلة على هؤلاء الصحافيين. وعلمت أن الكثير من الأوروبيين، باستثناء الاسبان، يفكرون بالسلاطين العثمانيين حين يسمعون عن الحريم، في حين نفكر نحن العرب بهارون الرشيد. ولهذا السبب، وقع اختياري على رجلي دولة مشهورين هما الخليفة هارون الرشيد من العالم العربي، والسلطان محمد الفاتح من الامبراطورية العثمانية، ليكونا نموذجين لهذا الحريم الذي انطبعت عظمته في المخيلات، وذلك بغية تحليل الانصهار بين السلطة والثروة والمتعة.

إن حريم هارون الرشيد (رابع خليفة من سلالة بني العبّاس العربية التي حكمت في القرن الثامن)، وحريم محمد الثاني (سابع سلطان من السلالة العثمانية، ولقبه «الفاتح»، وحكم في القرن الخامس عشر)، يمثلان نموذجين بكل معنى الكلمة، لا لأن هذين الحاكمين المسلمين قد بسطا سلطتهما على بيزنطة، رمز أوروبا المسيحية، بل لأن كلاً منهما، على طريقته الخاصة، كان شخصية فذّة. وما أن سقطت بيزنطة بأيديهما حتى بادرا إلى إخضاع رجالها وأسر نسائها المسيحيات كسبايا في قصورهما، والاضفاء على حياة البلاط درجة من الترف،

ومن العظمة القصوى لا مثيل لها. غير أن المرأة يجب أن تتوخى الحذر حين يدور الحديث عن الحريم، وأن تسأل دوماً السؤال الجوهري التالي: الترف والعظمة لمن؟ والجواب سهل: الحريم لا يؤمن المتعة إلا لشخص واحد أوحد، هو السلطان. فوحده السلطان هو الآمر الناهي وصاحب القرار والسلطة، وكل رعاياه، لا سيما النساء منهم، مجرد أدوات. وليس من قبيل الصدفة أن الرجال القلائل الذين يدخلون الحريم هم الخصيان، أي الرجال الذين تم تعطيل وظائفهم الجنسية بعناية. وتقضي مهمة الخصيان على التحقق من عدم وجود ذكر آخر في عالم الحريم غير السلطان الأوحد الذي لا شريك له. وكان أقصى ما تتمناه المرأة داخل الحريم أن يلمحها السلطان الأعظم ويقيم معها علاقة جنسية، فهي لا تحيا ولا تكون موجودة إلا إذا رمقتها نظرته. وعندما ينظر السلطان إلى غيرها، ويهوى امرأة أخرى، تعاني المحظية الحسناء في الحريم من لوعة النسيان الذي يشارف الموت. وكل النساء اللواتي أصبن بصدمات عاطفية يعرفن حق المعرفة عما أتحدث لأننا في الواقع نعيد بناء الحريم – التدميري حين نغامر في المتاهات المظلمة للانصهارات العاطفية، حيث نعطي للآخر سلطة تحديد ماهيتنا. ولكن لنعد إلى هارون الرشيد الذي كان يمضي وقته في العشق، ولا يعشق، بالطبع، المرأة نفسها كل مرة.

لقد استهل هارون الرشيد غرامياته في مرحلة مبكرة جداً إذ تزوج عام 165 هجري، في سن السادسة عشرة، بابنة عمه زبيدة. ومما يدعو للسخرية أن قصر «الخُلْد» شهد الاحتفال بزواجه الذي أطلقت فخامته العنان لمخيلة المؤرخين، ويخبرنا إبن خلِّكان في كتابه **وفيات الأعيان**: «لقد جاء القوم من كل حدب وصوب ووزعت عليهم مبالغ طائلة لم يشهدها الإسلام قط حتى ذلك الحين...»[1]. وسرعان ما نسي هارون الرشيد أميرته إذ التهى بكل الجواري اللواتي كان يحضرهن من فتوحاته العديدة. «وكان للرشيد زهاء ألفي جارية من المغنيات والخَدَمَة في الشراب،...»، على حد قول الطبري، «في أحسن زي من كل نوع من أنواع الثياب، والجوهر»[2]، وكن بمعظمهن إماءً مغنيات وشاعرات موهوبات سلبن لب الخليفة بأشعارهن وقوافيهن خلال جلسات السمر (والسمر كلمة تعني المساررة ليلاً).

ومن المفارقات أن خليفتنا غالباً ما كان يعشق جواري غيره، على غرار دنانير، الجارية الشهيرة التي جسدت أم كلثوم شخصيتها في الفيلم المصري الذي يحمل الإسم

(1) ابن خلِّكان، «وفيات الأعيان»، سيرة زبيدة، رقم 242، المجلد 2، ص. 314.

(2) كتاب الأغاني. المجلد 9، ص. 88، ورد في «ضحى الإسلام»، أحمد أمين، مكتبة النهضة – القاهرة 1961، المجلد 1، ص. 9.

نفسه. وكانت دنانير جارية يملكها وزير الخليفة، يحيى البرمكي[3]. وقد افتتن الخليفة بالجارية إنان التي كان يملكها رجل يدعى النديفي[4]. وأكثر الروايات الفاضحة كانت رواية عشقه للجارية غدير التي كان يملكها أخوه الهادي الذي أقسمت له قبل مماته ألا ترضخ لخلفه. وقد أرغمها هارون الرشيد على النكث بوعدها، فماتت غماً وحسرة. ويسعنا أن نتخيل المزاحمة التي كانت قائمة حول شخص الخليفة، وهارون الرشيد كان، فوق كل ذلك، وسيماً، ذكياً، مرهفاً، ينظم الشعر، ويشكك بنفسه، ويعبر عن مشاعره وتناقضاته، مما قد يذهب بعقول كل نساء الخلافة الإسلامية، في كل العصور، وهذا يحيلني إلى الحديث عن النساء.

لقد كان الموقع الذليل للنساء في الحريم يرتبط تحديداً بوفرة عددهن بالنسبة إلى السيد الأوحد الذي لا شريك له، كما يوضح ألان غروريشار في كتابه **بنية السراي**، والسراي كلمة فارسية تعني الحريم[5]. ويرسم

(3) عمر كحالة، «أعلام النساء»، المجلد 1، ص. 418.

(4) ابن الساعي، «نساء الخلفاء»، سيرة إنان، ص. 47.

5) يرى بنزر أن كلمة سراي التي تعني القصر الملكي المشيَّد فوق هضبة مشرفة على بيزنطية، أصلها فارسي، وكانت تعني مبنى في بادىء الأمر، ثم قصراً، فحريماً.

Penzer. *The Harem*. Spring Books. London. 1965. First edition published by Harrap in 1936, pp. 15 et suivantes.

غروريشار، بدقة ورهافة، بصفته رجلاً غربياً ذكياً ومرهفاً، معنياً مباشرة بالمسألة، هدف الحريم الذي يقوم قبل كل شيء على هرم سلطة يمثل فيه الجنس مادة البناء: «لا ريب أن الحاكم المستبد في السراي هو الوحيد القادر على الاستمتاع بالجنس اللطيف، ولكنه لا يستمتع به بقدر ما يستمتع بوفرته التي تعبر عن الدونية إزاء وحدانيته. لقد كانت النساء وفيرات في الحريم بمقدار متعة السيد الكلي القدرة... كما لو أن عددهن، مهما كان كثيراً، لا يمكن أن يبلغ ذلك الواحد الكلي القدرة الذي هو السيد إلا تقاربياً»[6].

ولا يتوقف المؤرخون العرب عن تعداد الجواري ولا سيما الفخامة التي كانت سائدة في الحريم، ويشددون على أن زبيدة كانت الزوجة الأولى في التاريخ العربي التي استعملت أوانٍ من الذهب الخالص، وهو تفصيل انطبعت به مخيلة رعايا الخليفة الذين كان معظمهم يعيش في الفاقة. ويحيلنا كل ما سبق إلى المثلث السحري: السلطة والثروة والمتعة، ذلك أن هارون الرشيد لا يزال يلهب مخيلة النساء والرجال في العصر الحديث لا لأنه كان يعشق فحسب، بل، وخصوصاً، لأنه كان يمزج هذا

(6) Alain Grosrichard *Structure du Sérail: La fiction du despotisme oriental dans l'occident classique*. Éditions du Seuil. Paris 1979. p. 178.

النشاط مع فتوحاته والهزائم التي كان يلحقها بالغرب المسيحي، جارنا الأبدي الذي يتدبر أمره دائماً لاجتذاب أهوائنا واستثارة أحقادنا وغرامياتنا وزيادة تناقضاتنا حدة. وهنا، نقع على جانب مستتر وغير متوقع للحريم في أغلب الأحيان، ألا وهو البعد العسكري، والقوة الهمجية للبطش والاستعباد.

لقد كانت الهالة السحرية التي تحيط بهارون الرشيد تعزى كذلك إلى كونه غازي العالم المسيحي وفاتحه. وقد اشتهرت حروبه مع الغرب المسيحي ومعاركه المتواصلة مع الروم وفتحه لبيزنطة. لم يكن هارون الرشيد يكتفي بإعطاء الأوامر بل يقود جيوشه شخصياً إلى ساحات الوغى. وكان يملك ألفي جارية، ولكنه لم يمضِ سنوات حكمه الثلاث والعشرين يتملى في جواريه بل كان يحارب في معظم الأوقات، فيقود قافلة الحجاج إلى مكة في سنة، ثم يقود الجهاد ضد بيزنطة في السنة التي تليها. وكان رده الشهير على الإمبراطور البيزنطي نقفور حين نعته بالكلب، أحد الأحداث التي جعلت من هارون الرشيد شخصية أسطورية. وقد أعلم نقفور، إذ عوَّل على كراهية العرب للثلوج، الخليفة بخرقه معاهدة صلح تم توقيعها حين اجتاح هارون الرشيد أراضي الامبراطورية على رأس جيش جرَّار عام 190 هجري (806 ميلادي). وقد بعث له الخليفة كتاباً مقتضباً قبل أن يمتطي صهوة جواده، ويعود

لاجتياز الجبال المغطاة بالثلوج من أجل غزو بيزنطة: «بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام»[7].

وعلى غرار أيامنا الراهنة، كانت العلاقة بين العرب والأوروبيين حول المتوسط تقوم على النزاعات مع فارق يتمثل في الحركة المتواصلة من الكر والفر. ولكن، لنستمع إلى الطبري يقول: «هجم ملك الروم بجيش جرار على تخوم سوريا، فمشى هارون لمواجهته على رأس مئة ألف رجل واستولى على مدن عديدة في بلاد الروم. واضطر نقفور ملك الروم إلى توقيع الصلح، ووعد بدفع جزية قدرها ثلاث مائة ألف دينار كل عام واحترام الأراضي المسلمة. وعلم هارون، فور عودته إلى بغداد، أن نقفور قد نقض العهد وخان الميثاق، واجتاح الأراضي المسلمة، وكان البرد شديداً، فيئس نقفور من رجعته إليه فكرَّ راجعاً في أشد محنة وأغلظ كلفة، حتى أناخ بفنائه

(7) الطبري «تاريخ الملوك والأمم» (المجلد 10، ص. 92 من النص العربي الأصلي)، ولكن الترجمة الفرنسية التي اعتمدتها نقلها Zotenberg عن نسخة فارسية لتاريخ الملوك والأمم. ففي عام 352 هجري (963 م)، طلب أحد الوزراء من الإمام الطبري أن يترجم إلى الفارسية كتابه الذي وضعه أصلاً بالعربية، وذلك بناءً على طلب أمير ساماني. أنظر: Zotenberg: L'Âge d'or des Abbassides. Sindbad. Paris 1983. p. 133، والطبري مؤرخ عاش في القرن التاسع.

فلم يبرح حتى رضي وبلغ ما أراد»[8].

وثمة تفصيل يتعلق بالزي، **القلنسوة** أو **الطويلة** التي كان يلبسها هارون، وأصلها فارسي، وهي عبارة عن قبعة مخروطية عالية شاعت في العصر العباسي، تختصر هذا الوجه المحارب: «واتخذ قلنسوة مكتوباً عليها «غاز حاج» فكان يلبسها، بسبب الواجبات التي كان يؤديها، فيقود قوافل الحجاج إلى مكة في سنة، والحملات ضد بيزنطة في السنة التي تليها»[9]. وقد أطلق هارون الرشيد إسمه على الهارونية، وهو حصن شيده للدفاع عن الحدود مع البيزنطيين عام 183 هجري (799 م)، وعززه بالأبواب والأسوار الحديدية. وقد سقط حصن الهارونية بيد الصليبيين عام 348 هجري (959 م)، ثم استعاده سيف الدولة وأخذه الصليبيون ثانية وضموه إلى مملكة أرمينيا الصغرى. ويقدم كل ما سبق فكرة عن حدة الصراع بين المسلمين والنصارى، وهي نزاعات لم تتوقف قط وتبرر إثارة هارون الرشيد لاستيهاماتنا حتى اليوم. فقد كان الخليفة العباسي أول من أولى أهمية فائقة للأسطول البحري، وقيل إنه كان يتبادل السفراء والهدايا مع

---

(8) Tabari, traduction francaise de Zotenberg: *L'Âge d'or des Abbassides*, p. 133.

(9) Tabari III. 709 cité dans *l'Encylopédie de l'Islam*, article de Y. K. Stillman sur "Libas".

شارلمان «مما أعطى لشارلمان حقوق حماية القدس»[10].

إن العلاقة بين الفتوحات العسكرية وتسخير الجواري لخدمة ومتعة السلطان- الغازي، الواحد الأوحد، فضلاً عن الصراع الدائر بين أوروبا والشرق، سوف يكونان سمة ثابتة في كل أنواع الحريم التي سنزورها في الفصول التالية، لا سيما الحريم التركي والحريم الإغريقي والروماني، وهذا يحيلني إلى نقطة البداية: إن كلاً منا، وحسب ثقافته الأصلية وجنسه (الأوروبيون في الضفة الشمالية من المتوسط، والعرب في الضفة الجنوبية)، سوف يقوم بتوليف تركيبة خاصة من العناصر التي تدخل في استيهام الحريم. وهنا تتعقد الأمور، فالرجل العربي يتماهى بسهولة مع هارون الرشيد، ولكن المرأة العربية لا حل أمامها سوى التماهي مع زبيدة، الأميرة المهجورة، أو مع جارية تثير شغفاً عابراً!

---

(10) *Encyclopédie de l'Islam,* nouvelle édition, texte de F. Omar "Harun Er- Rachid".

الفصل السادس

محمد الثاني أو الحريم التركي

يثير الحريم التركي لسلاطين السلالة العثمانية خصوصاً استيهامات الأوروبيين، وليس حريم هارون الرشيد كما هو الحال بالنسبة إلينا نحن العرب. ولا يهيمن على مخيلة الأوروبيين الخليفة هارون الرشيد بل السلطان محمد الثاني. لماذا كان الفنانون الأوروبيون، منذ إنغر وصولاً إلى ماتيس، يرسمون المحظيات وليس الجواري، وهي الكلمة العربية التي تحمل الدلالة عينها؟ ما هو تفسير هذا اللغز؟ ومن هو السلطان العثماني محمد الثاني؟

كان السلطان محمد الثاني الذي حكم منذ عام 1451 حتى عام 1481 معروفاً باسم «الفاتح» لأنه فتح القسطنطينية (بيزنطة سابقاً) عام 1453. ولكن الفاتح المسلم لم يكتف هذه المرة بالتجوال فيها ومغادرتها كما فعل هارون الرشيد في القرن التاسع، بل استقر فيها ومحا عن الخريطة العاصمة المسيحية، فتحولت القسطنطينية إلى إسطمبول

وظلت كذلك حتى بعد انهيار الامبراطورية العثمانية التي لفظت أنفاسها حين وجه إليها أتاتورك الضربة القاضية معلناً تركيا أول جمهورية في أرض الإسلام: «كان العثماني لا يثير الهلع كثيراً منذ الحملات الصليبية. ولكن، ومع سقوط بيزنطية في 2 نيسان/ أبريل عام 1453 على يد محمد الثاني، بلغت الامبراطورية العثمانية مشارف أوروبا، ولن تتوقف عن تهديدها عسكرياً طوال قرنين. كان العثماني عدواً مخيفاً بل ومكروهاً بالنسبة إلى الأوروبي في القرن السادس عشر، ولكنه يثير الاحترام؛ فالأوروبيون كانوا مذهولين أمام هذا النظام القوي والفعال الذي تجتمع فيه السلطات السياسية والعسكرية والدينية بين يدي رجل واحد، السلطان الأعظم الذي راح السفراء الغربيون الأوائل يصفونه أوصافاً تلهب المخيلات»[1].

وما أن فتح محمد الثاني القسطنطينية حتى أعطى لجنوده الأمر بنهب ثرواتها ومن بينها النساء بالطبع. وكان سبي نساء الروم أحدى الإشارات غير الملموسة لانتصار المسلمين على المسيحيين. ولكن لنتمعن من جديد في قراءة الوثائق التاريخية حول فتح بيزنطية من أجل فهم هذا البعد المرضي الذي يكتنف الحريم، أي العلاقة التي غالباً ما لا ندركها، والتي تتكوَّن دون علم منا، بين البطش العسكري والجنس، بين العنف واللذة.

---

(1) Alain Grosrichard, *Structures du Sérail*. op.cit.

السلطان محمد الثاني، مؤسس اسطمبول.

يخبرنا المؤرخون أن القسطنطينية تأسست في القرن الرابع عام 330، وظلت تتحدى العالم الإسلامي حتى عام 1453، السنة التي محاها السلطان العثماني محمد الثاني عن الخريطة، داخلاً المدينة بعد حصار طويل، ومحوِّلاً إسمها رمزياً إلى اسطمبول. وتأتي كلمة اسطمبول من جناس بالتركية «إسلام–بول» (حيث الإسلام يزدهر)، على حد قول إينالتشيك خلال تقديمه لهذه المدينة في موسوعة الإسلام. وقد أطلق عليها محمد الثاني، فاتح المدينة، إسم اسطمبول... «وينص فرمان صادر في عام 1174/1560 أنه يجب استعمال هذا الإسم على العملة النقدية بدلاً من إسم القسطنطينية الذي كان شائعاً حتى الساعة»[2]. وقد ألغى هذا الفرمان العثماني القسطنطينية، وإحدى أكثر الامبراطوريات المسيحية مقاومةً في الشرق. وغالباً ما تُلقَّب اسطمبول بألقاب على نحو «المحمية» أو «المحروسة»[3].

وكان الإسم القديم للقسطنطينية بيزنطيوم Byzantium، وقد انتشر لاحقاً في كل الامبراطورية، وحملت العاصمة إسم مؤسسها قسطنطين الأول (306 –

(2) Voir le mot "Istanbul" dans *l'Encyclopédie de l'Islam.*
(3) *Encyclopédie de l'Islam*, idem.

337)[4]، أول امبراطور روماني فكر بنقل مقر عاصمة روما إلى الشرق[5]. وكان البيزنطيون يعتبرون أنفسهم روماناً ويتسمون بإسم Romaioi، وغالباً ما يشيرون إلى عاصمتهم القسطنطينية على أنها روما الجديدة. وقد خطر لقسطنطين أن ينقل عاصمة الامبراطورية الرومانية إلى الشرق لأنه كان يعتقد بأن روما موقع يصعب كثيراً الدفاع عنه، لا سيما وأن إيطاليا كلها كانت تتعرض لغزوات مستمرة[6]. وسوف تنهار الامبراطورية الرومانية في الغرب بعد سقوط روما ونهبها عام 410 على يد الفيزيقوطيين Wisigoths[7]. وسوف تستمر الامبراطورية البيزنطية في الشرق بالمقاومة وصد الهجمات من كل الأنواع، لا سيما هجمات المسلمين حتى عام 1453. وكان بحر مرمرة الذي يطوق القسطنطينية من جهات ثلاث، يجعلها منيعة أو صعبة الغزو. وقد كان اختيار الموقع اختياراً موفقاً، وقام قسطنطين بتشييد المدينة في ست سنوات، وجرى الاحتفال بتأسيسها في 11 أيار/مايو من العام 330.

غير أن ما كان يميز القسطنطينية خصوصاً، حسب مؤسسها، أنها مدينة مسيحية خلافاً لروما التي كانت وثنية

---

(4) Rovena Loverance *Byzantium* British Museum Publications, 1988, p. 5.

(5) Rovena Loverance *Byzantium* p. 7.

(6) Rovena Loverance *Byzantium*, 1988, p. 7.

(7) Rovena Loverance *Byzantium*, 1988, p. 16.

أصلاً قبل ظهور المسيحية: «لقد أتاح إنشاء القسطنطينية لمؤسسها الفرصة ليقيم من العدم مدينة مكرَّسة بأكملها لتجسيد المسيحية»[8]. ومن هذا المنطلق، سحرت المدينة الحكام المسلمين منذ ظهور الإسلام وحتى سقوطها ومحوها عن الخريطة على يد العثمانيين في القرن الخامس عشر. ولفتح القسطنطينية، اضطر السلطان المسلم محمد الثاني إلى تكرار المحاولة براً وبحراً، ووصف المدينة من الزاوية التركية فريد ويتضمن كل مقومات الإبهار: سقوط المدينة/ الصراع بين الإسلام والمسيحية/ سبي النساء: «لقد ظل العثمانيون لفترة طويلة يعدون العدة لفتح المدينة. وعندما أصبحوا على أهبة الاستعداد، حل فصل الصيف وأعلن السلطان محمد الثاني: «سوف نقضي هذا الصيف في اسطمبول». وقد وصلت الجيوش العثمانية إلى الضفة الأخرى براً، ونصبت معسكرها حول اسطمبول، وطوقت المدينة بحراً. وكان الاسطول البحري يضم 400 سفينة، أبحر سبعون منها من غالاتا. وتأهب المحاربون ورفعوا راياتهم، وشيدوا، عند أسوار المدينة، جسراً فوق الماء وهجموا. وتواصلت المعركة ليلاً ونهاراً دون توقف طوال خمسين يوماً. وفي اليوم الحادي والخمسين، أمر

(8) *Byzantium*, op.cit. p. 10.

السلطان باقتحام المدينة وسمح لجنوده بالسلب والنهب. فهجمت القوات العثمانية، وسقط الحصن المنيع، وكان يوم ثلاثاء. وجرى السلب والنهب، وكانت الغنائم وفيرة، وحُمِّل الذهب والحلي والتحف الثمينة ووضع في سوق المعسكر. وبدأ الجنود يبيعون غنائمهم، وقد استعبدوا سكان المدينة وقتلوا الامبراطور، واستباح الفاتحون الفتيات الحسان... ويوم الجمعة التالي، رفعت الصلوات في آياصوفيا باسم السلطان الفاتح، إبن السلطان مراد خان الغازي... وكان ذلك في العام 857 هجري (1453م)»[9].

---

(9) ورد في *Ashikpashazade,* Tevarih-i Al-i- Osman. ed. Nihal Atsiz, pp. 191-194, ed. Ali, pp. 141-144.

وقد ترجمه إلى الانكليزية برنار د لويس Bernard Lewis in "Islam" Vol. I et II, Harper and Row, New York, 1974, p. 144.

نقلت النص من برنارد لويس من الإنكليزية لأنني لا أجيد اللغة التركية. وفي ما يلي النص الإنكليزي حرصاً مني على الإقلال من تحريف المعنى، ومن أجل أن يتسنى للقارىء تصحيح ترجمتي:

"They had been busy for some time with preparations for the conquest of the city. When all was ready and summer came, Sultan Mehmed said: " we shall spend the summer in Istanbul. They came and made camp around the walls of Istanbul from the land side and with ships on the sea they enclosed the city all around. There were 400 ships on the sea, and 70 ships sailed over Galata across the dry land. The warriors stood ready and unfurled their flags. At the foot of the walls they went into the sea and made a bridge over the water. They attacked."

"The fighting went on day and night, for fifty days. On the fifty first day the sultan ordered free plunder. They attacked. On the

هل يكمن سر الهيمنة العثمانية على المخيلة الغربية في هذا الوصف لسقوط القسطنطينية؟ هل تأتي القدرة الاستيهامية لكلمة حريم من هذه العلاقة بين الفتح العسكري واسترقاق النساء واستباحتهن من قبل السلطان الغازي، الوحيد الأوحد؟ أليس غريباً أن يلتقي مسار رجلين مختلفين كهارون الرشيد ومحمد الثاني، تفصل بينهما قرون عديدة، وتثير ذكراهما الاستيهامات حتى اليوم (الأول في الشرق، والثاني في الغرب)، من خلال اقتحام بيزنطية بجيوشهما وسبي نسائها؟ في مطلق الأحوال، من المؤكد أن أحد مظاهر القوة العسكرية المسلمة كان تدفق الجواري الأعجميات إلى الحريم. وهؤلاء كن الجواري يأتين من البلدان التي جرى غزوها في آسيا وأفريقيا ولا سيما أوروبا، بما أن العالم المسيحي كان الجار الأقرب والخصم الأزلي. ويرى أحمد أمين أن «العنصر الأوروبي داخل الإمبراطورية الإسلامية تعاظم

---

fifty first day, a Tuesday, the citadel was captured. There was good booty and plunder. Gold, silver and jewels and fine stuffs were brought and stocked up in the camp market. They began to sell them. They made the people of the city slaves and killed their Emperor, and the gazis embraced their pretty girls... In short, on the first Friday after the conquest, they recited the communcal prayer in Santa Sofia and the Islamic invocation was read in the name of sultan Mehmed khan Gazi, the son of Sultan Murad Khan Gazi... This victory was achieved by sultan Mehmed khan in the year 857 of the hijra (1453)."

بشكل لافت بسبب الحروب المتواصلة بين الخلفاء العرب وأباطرة الروم»[10]. «ومنها ما كان من انتشار الروم من رجال ونساء وغلمان في بيوت الخلفاء والأغنياء كمماليك، حتى أن بعض الخلفاء في هذا العصر كانت أمهم رومية. . .»[11].

وبالفعل، كانت أمهات العديد من الخلفاء العباسيين روميات، ومن بينهم الخليفة المأمون (813/ 198 – 833 / 218)، إبن هارون الرشيد، وسابع خليفة من سلالة بني العبّاس[12]، ولكنه لم يكن وحده، فسوف تنتقم الامبراطورية الرومانية المستباحة من خلال نسائها إذ لن تكتفي الجواري الروميات بإغواء الخلفاء بل سوف يحرصن على أن يعتلي أبناؤهن عرش الخلافة. وكانت أمهات العديد من الخلفاء العباسيين روميات. ومن هؤلاء الخلفاء، الواثق (الخليفة التاسع، 842 / 227 – 847 / 232)، والمنتصر (الخليفة الحادي عشر، 861 / 247 – 862 / 248)، والمستعين (الخليفة الثاني عشر، 862/ 248

(10) الروم كما ذكرنا آنفاً هم البيزنطيون، أي روم المملكة الرومانية في الشرق، وكل العالم المسيحي تعميماً.

(11) أحمد أمين، «ظهر الإسلام»، المجلد 1، ص. 66.

(12) إبن حزم الأندلسي، «رسالة في أمهات الخلفاء» – الرسائل – تعليق وتقديم د. إحسان عباس – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت 1981، المجلد 2، ص. 119 – 122. وقد ولد إبن حزم عام 384 وتوفي عام 456.

- 866 / 251)، والمهتدي (الخليفة الرابع عشر، 869 / 255 - 869 / 256)[13]. وقد أثر هذا الدفق الرومي بالطبع في الحضارة الإسلامية نفسها التي كانت أصلاً تحمل بصمات من الحضارة الفارسية: «وقد أنجب هذا العنصر الرومي أدباء وعلماء، كان لهم في فنهم وعلمهم طابع خاص لم يكن مألوفاً في العقلية العربية والفارسية، ومن أشهر هؤلاء ابن الرومي الشاعر، وابن جني النحوي»[14]. وهنا، يصادف المحللون لظاهرة الحريم والذين يحاولون فهم جاذبيتها الغريبة، مفاجأة أخرى: فقد كانت النساء السبايا الأعجميات ينتقمن من خلال السعي لحمل أبنائهن إلى سدة الخلافة، والتأثير في ثقافة سيّدهن.

غير أن هذه القدرة التي اتسمت بها النساء السبايا على الفتنة والكيد داخل قصور الأسياد لا يعرفها سوى الحريم الإسلامي، لأن هذه الظاهرة كانت مستحيلة في حريم الإغريق والرومان على سبيل المثال، لسبب بسيط وهو أن إبن الأمَة يولد ويبقى عبداً طوال حياته؛ وبالتالي، نرى أن الإسلام كان متقدماً في مجال حقوق الإنسان نوعاً ما، لأنه، وخلافاً للإغريق والرومان، أعتق أبناء الجواري وفتح أمامهم باب الخلافة. ولنا أن نتساءل: هل كان

(13) إبن حزم الأندلسي، «رسالة في أمهات الخلفاء»، الصفحة نفسها.
(14) أحمد أمين، «ظهر الإسلام»، المجلد 1، ص. 67.

الحريم معروفاً لدى الإغريق والرومان؟ إعلموا إذاً أن العرب لم يكونوا آباء الحريم، وأن الإغريق والرومان قد سبقوهم في هذا المجال.

الفصل السابع

الحريم الإغريقي والروماني
الجنس والعنصرية

تقدم وسائل الإعلام الأميركية صورة سلبية للغاية عن الرجل العربي، وتنسب إليه جريمة لا تغتفر في الأخلاق البروتستانتية، ألا وهي أنه قد أنشأ الحريم[1]. فالعربي صاحب هذه الفكرة المستهجنة في الأخلاق المسيحية المتشددة، والقائمة على اتخاذ العديد من النساء شرعاً كشريكات جنسيات. ولو قرأنا كتب التاريخ، لاكتشفنا أن العرب لم يكونوا آباء الحريم. فقد عرف الحريم الامبراطوري في تاريخ المتوسط قبل 700 عام على ظهور الإسلام، لدى الإغريق والرومان على حد سواء، وسيكون هؤلاء مثالاً للخلفاء والسلاطين المسلمين. ففي

---

(1) حول الصورة السلبية التي تقدمها وسائل الإعلام الغربية عن العرب، أنظر:

The T.V. Arab de Jack G. Shaheen, Bowling Green State University Popular Press, Ohio, 1984

«بالرغم من أن هذه الصورة السلبية تعود لعقود طويلة خلت، فهي تتحدى الزمن، وتكتسب الأشكال المنمّطة المزيد من القوة مع مرور السنين».

الواقع، لقد ظهر الإسلام في القرن السابع، وكان الإغريق يمارسون الحجر على النساء قبل أحد عشر قرناً بما أن الحريم كان معروفاً في أثينا خلال القرن الخامس قبل الميلاد: «كان الفصل بين الجنسين منظماً في المكان؛ ففيما كان الرجال يمضون سحابة نهارهم في الأماكن العامة كالأسواق والقاعات الرياضية، كانت النساء المحترمات يمكثن في منازلهن. وفي حين كانت الأماكن العامة تلك الأماكن الرائعة التي نعرفها، فقد كانت الأحياء السكنية في أثينا، أثناء الحقبة الكلاسيكية، مظلمة وقذرة وفقيرة. وكان العديد من العائلات يملك أمَةً على الأقل... وكان شائعاً أن ترسل نساء الأغنياء عبيدهن للتسوق، ولكن النساء الفقيرات اللواتي لا يملكن العبيد، لا يتمتعن بامتياز الحجر...»[2].

وبالتالي، كانت أثينا في الحقبة الكلاسيكية (400 – 300 قبل الميلاد) تملك هندسة معمارية للحريم، يحدد

---

(2) "The separation of the sexes was spatially emphasized. While men spent most of their day in public areas such as the market place and the gymnasium, respectable women remained at home. In contrast to the admired public buildings, mostly frequented by men, the residential quarters of classical Athens were dark, squalid, and unsanitary... Many families were likely to own at least one female slave... wealthier women were most likely to stay home and send their slaves on errands, but poor women, lacking slaves, could not be kept in seclusion ". Sarah Pomeroy, *Goddesses, Whores and Slaves*: Women in classical antiquity, shocken books, New York, 1975, p. 78.

فيها الفصل المكاني لكل جنس موقعه، ويحتجز النساء في نطاق محدد: «كان الفصل بين الجنسين يظهر في تصميم المنازل من خلال إنشاء مساحات مخصصة حصراً للرجال أو للنساء. وكانت النساء تقطن في الغرف الخلفية، بعيداً عن الشوارع وواجهة المنزل التي كانت تعتبر مكاناً عاماً. وعندما يكون المنزل مؤلفاً من طابقين، تقيم المرأة وإماؤها في الطابق السفلي»(3). كانت الزوجات الحرائر يحتجبن عن أنظار الرجال، ما عدا الأقارب، وكان تسلل رجل إلى حميمية امرأة حرة متزوجة برجل آخر، يعتبر جريمة(4). وقد رأينا أن الخذر gynécée من اليونانية gunaikeion يدل على جناح النساء في المنازل الإغريقية والرومانية.

وإلى جانب الحجر على النساء، نصادف لدى الإغريق والرومان العنصر الثاني الذي يتألف منه كل حريم

(3) "The separation of the sexes was expressed in private architecture by the provision of separate quarters for men and women. Women usually inhabited the more remote rooms, away from the street and from the public areas of the house. If the house had two stories, the wife along with female slaves lived upstairs". Sarah Pomeroy, chap. V: *Private life in classical Athens in Goddesses Whores and Slaves*, p. 80.

(4) "Free women were usually secluded so that they could not be seen by men who were not close relatives... for a strange man to intrude upon free women in the house of another man was tantamount to a criminal act". Sarah Pomeroy in *Goddesses, Whores and Slaves*, p. 81.

يستحق هذا الإسم، أي وجود الإماء المتفرغات لمتعة السيد الجنسية واللواتي يتمتعن بموقع الخليلات، بالإضافة إلى الزوجات الحرائر[5].

وقد سار الرومان على خطى الإغريق في إنشاء الحريم والحجر على النساء لدى علية القوم، وإن كانت الرومانيات أكثر حرية وتحرراً. ويرى كورنيليوس نيبوس، وهو كاتب عاش في القرن الأول قبل الميلاد، أن الاختلاف الوحيد بين نساء أثينا الكلاسيكية ونساء روما أن الأخيرات كن يتمتعن بالمزيد من الحرية، ويحق لهن مرافقة الزوج إلى الحفلات العامة[6]. وكانت ظاهرة الرقيق معروفة كذلك لدى الرومان، وعددهم يعكس ثروة وقوة السيد الذي يملكهم[7]. وكانت الإماء متفرغات

(5) "... female slaves were also available to their masters or their master's friends for sexual purposes" Sarah Pomeroy, in *Goddesses, Whores and Slaves*, p. 90.

(6) "The principal contrast between Greek and Roman women is that the former sit secluded in the interior parts of the house, while the latter accompany their husbands to dinner parties". Sarah Pomeroy, chap. VIII. "The Roman matron of the late republic and early empire" in *Goddesses, Whores and Slaves*, p. 170.

وتمتد نهاية الجمهورية وبداية الامبراطورية على كل القرن الأول قبل الميلاد تقريباً. ويعتبر اغتيال يوليوس قيصر عام 44 قبل الميلاد، وهزيمة أنطوان وكليوباترا عام 31 قبل الميلاد، قبيل الدخول في المسيحية، حدثين تاريخيين بارزين يمكن الاستدلال بهما.

(7) "Wealthy families owned thousands of slaves, living on their various holdings, and the household of the emperor (familia

جنسياً لمتعة السيد[8]. وكما لدى الإغريق، يعتبر الطفل الذي يولد من الأَمَة والسيد رقيقاً[9].

وبالتالي، ليس العرب آباء الحريم. فقبل ظهور الإسلام، كان العرب يعيشون في فقر مدقع لا يسمح لهم بالحصول على حريم، فكانوا يطمعون بالامتياز الذي يتمتع به جيرانهم البيزنطيون الأقوياء (الامبراطورية الرومانية في الشرق) ويعدونه ترفاً. وقد استوردوا هذا الحريم كما نستورد اليوم السيارات الفارهة، حالما وضعهم الإسلام في مصاف القوى العظمى. أما هارون الرشيد الذي كان له الامتياز بتهديد القسطنطينية قبل غيره عام 181 هجري (797– 798 م)، فسوف يذكره التاريخ على أنه الخليفة الذي ارتقى بالحريم العربي إلى أعلى درجات الترف، وحطّم رقماً قياسياً باقتنائه ألفي جارية أحضرهن من البلدان التي قام بفتحها. ولئن قام العرب بمحاكاة حريم الإغريق والرومان، فهم لم ينقلوه حرفياً

Caesaris was probably the largest..." Sarah Pomeroy, chap. IX Women of the roman lower classes, in *Goddesses, Whores and Slaves*, p. 191.

(8) "Slaves were always employable for sexual purposes, either in addition to their other domestic responsabilities, or as a primary occupation. The master had access to his slave women" Sarah Pomeroy, chap. IX, Women of the roman lower classes, in *Goddesses, Whores and Slaves*, p. 192.

(9) "The children born while a mother was still a slave were slaves". Sarah Pomeroy, chap. IX, Women of the roman lower classes, p. 197.

وبغباء، بل بادروا إلى تجديد هذه المؤسسة وتحسينها لاسيما بالنسبة إلى مساواة الجارية وحقوقها، وخصوصاً لجهة وضع ابنها الذي تنجبه من رجل حر. وخلافاً للأسياد الإغريق الذين لا يعترفون بالأبناء الذين ينجبونهم من الإماء كما يعترفون بأبنائهم من الحرائر، كان العرب يعترفون لأبناء السراري بكامل حقوقهم. ولا يعتبر هذا التفصيل ثانوياً بل لقد اكتسب أهمية فائقة في أسلوب تعاطي الحضارة الإغريقية والرومانية، ومن ثم الغرب الحديث الذي ينتمي إليها، مع العبودية والعنصرية. فقد كان بمقدور السبايا الأعجميات في حريم هارون الرشيد إطلاق العنان لطموحهن برؤية إبنهن خليفةً، ووريثاً لعرش أبيه، وحاكماً على الامبراطورية الإسلامية. أما هذا الأمل فكان محرَّماً تماماً على جارية الامبراطور الإغريقي أو الروماني. وحتى لو نالت هذه الجارية حظوة الإمبراطور وأمضت ليلة معه، فالطفل الذي قد تثمره هذه العلاقة كان محكوماً بالبقاء عبداً.

لقد تسنى للعديد من أبناء الجواري الأعجميات (أي السبايا اللواتي أحضرهن الخلفاء كغنائم حرب من الأراضي التي فتحوها في آسيا وأفريقيا وأوروبا) اعتلاء عرش الخلافة. وبما أن امبراطورية بيزنطية الرومانية كانت أقرب جار وخصم للعرب، فقد كان تدفق الجواري الروميات عقب الفتوحات العربية لافتاً. وهكذا، أصبح

الكثير من الأبناء نصف الروميين خلفاء بدورهم، وحكموا الامبراطورية الإسلامية، وهو أمر لم يكن وارداً عند الإغريق والرومان (وقد ذكرنا أن والدة الخليفة المأمون (813 / 198– 833 / 218)، ابن هارون الرشيد، كانت رومية)[10]. وهنا، نلمس فرقاً هائلاً ونقع على مفارقة غريبة بين الإغريق الذين صاغوا مفهوم الديمقراطية الغربية، وكانوا، في الوقت نفسه، يمارسون الاسترقاق بأشكاله القصوى، وبين العرب الذين تمايزوا منذ البداية بموقفهم اللافت المناهض للعبودية بفضل إيديولوجيا الإسلام.

لقد كان العرب قبل الإسلام يضاهون الإغريق عنصريةً، ويرفضون إعتاق إبن الجارية. ولكن الدين الإسلامي الذي ظهر على أراضيهم، واعتبر حاملاً لرسالة عالمية هو الذي قام بتحرير إبن الجارية. ويشدِّد المؤرخون العرب على عنصرية الأمويين الأوائل، ويعتبرونها سمة من سمات الجاهلية. فقد كان الخلفاء الأوائل في السلالة الأموية (حكم الأمويون من عام 41 حتى عام 132هـ. (661 حتى 750م.) فخورين بدمهم العربي،

(10) إبن حزم الأندلسي، «رسالة في أمهات الخلفاء» – الرسائل – تعليق وتقديم د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، المجلد 2، ص. 119 – 122. ولد إبن حزم عام 384 وتوفي عام 456.

يحتقرون أبناء الإماء الأعجميات ويضعونهم في مرتبة دونية، ولا يسمحون لهم بالوصول إلى سدة الخلافة حسب الصيغة الشهيرة التي تثير حفيظة أي مسلم في أيامنا الراهنة: «كانت بنو أمية لا تستخلف بني الإماء»[11].
ويبدو أن عنصرية عرب الجاهلية قد تراجعت مع العباسيين، وحلت محلها الشمولية التي هي جوهر الإسلام. وقد تفوق العباسيون في مجال اختلاط الأعراق والثقافات، وأتاحوا للإسلام تجاوز أصوله العربية، ومنح الفرص المتكافئة لكل أبناء الخليفة أياً كان وضع أمهاتهم. ومما يدعو للمفارقة أن الإسلام تمكن منذ القرون الوسطى من إنشاء مجتمع متعدد الثقافات، وهو مفهوم لم يستوعبه الغرب لفترة طويلة بالرغم من الإنجازات العظيمة التي حققها في مجال حقوق الإنسان. ولا ننسى أن السيد الأبيض الذي كان يقيم علاقة مع أَمَة سوداء في المزارع الأميركية لم يكن يعترف بإبنه قط. وكان هذا الطفل الأميركي يعتبر عبداً. ونحن نعرف أن إحدى المشاكل التي لا تزال تواجهها أميركا، هذه الدولة العظمى، وتعجز

---

(11) إبن عبد ربّه الأندلسي، «العقد الفريد»، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة 1983، المجلد 7 المخصص للنساء ويحمل عنوان «كتاب المرجانة في أخبار النساء»، ص. 142. وقد توفي المؤلف عام 338 هجري / 940 م. ويتألف «العقد الفريد» من 25 فصلاً يحمل كل منها إسم حجر كريم (لؤلؤة، ياقوتة، مرجانة، زبرجد، جمانة، الخ.). وقد نشر في ثمانية مجلدات.

عن حلها حتى في أيامنا الحاضرة، تتمثل في اندماج السود، علماً أن هذه الدولة قد اضطلعت منذ نهاية الحرب الباردة بالدفاع عن حقوق الإنسان ومبادىء الديمقراطية.

غير أن هذه الزيارة للإغريق والرومان لا تساعدنا مطلقاً على جلاء الغموض الذي يحيط بموقف جيراننا الأوروبيين: فلماذا لا تتمحور استيهامات الألمان والفرنسيين والأسبان وغيرهم من الشعوب الغربية التي تنتمي إلى الحضارة الإغريقية - الرومانية، حول حريمهم الخاص الذي كان معروفاً في حضارتهم القديمة؟ لماذا يتوجب عليهم الارتحال إلى الشرق لتتولد استيهاماتهم عن الحريم؟ لماذا يتمتع الشرق بكل هذه الجاذبية الجنسية في نظر جيراننا الشماليين؟ أقترح عليكم، لحل هذه الأحجية، الانتقال في الفصل التالي إلى ألمانيا المتزمتة في القرن السادس عشر للتحقيق حول كاهن غامض أثار غضب الكنيسة، إذ اعترف برغبته الجامحة في التمتع بالحقوق نفسها التي يتمتع بها المسلم، في كتاب يحمل عنوان **انتصار تعدد الزوجات** Polygamia Triomphatrix.

الفصل الثامن

متاعب الكاهن الألماني الذي يدافع عن تعدد الزوجات

كون القانون يجيز تعدد الزوجات في مجتمعاتنا الإسلامية ويحظره لدى جيراننا الغربيين يغير تغييراً جذرياً الطريقة التي يتناجى بها المحبون على ضفاف البحر الأبيض المتوسط. فالعربي العاشق لا يتردد في التهديد باتخاذ زوجة أخرى إذا قامت زوجته بصدّه، وهو أمر غير وارد في الضفة الأخرى من المتوسط. وأعتقد أن الألماني المتيَّم في ميونيخ أو هامبورغ الذي يلقي مثل هذه «الدعابات» على مسمع حبيبته قد يلاقي من جانبها الجفاء والقطيعة. وتهديد الزوجة بالخيانة على سبيل «الدعابة» أمر شائع جداً في مجتمعاتنا بحيث أن لا أحد يأخذ على محمل الجد الرجل العربي الذي يصرِّح بأنه يفضل الزواج الأحادي. أما الأوروبي الذي يصرِّح بذلك فيثير الشكوك على الفور. ولقد تعرضت رغبة الرجال الغربيين المساكين بتعدد الزوجات إلى القمع، أولاً لأن الديانة المسيحية تحظره، وثانياً كونهم من مواطنين الدول التي اعتمدت

العلمنة وجردت الرجال من سلطتهم. وسوف يشخص جيراننا المقموعون في مجتمعاتهم إلى الشرق لإشباع رغبتهم بالحصول على أكثر من زوجة واحدة.

لقد أقدم كاهن ألماني جريء يدعى يوهان ليزر عام 1674 على تأليف رسالة يعدد فيها فضائل تعدد الزوجات. وبالرغم من أنه حرص على نشرها تحت إسم مستعار هو تيوفيلوس أليتيوس، فقد افتضح أمره، «وصب عليه المجتمع اللوثري في مدينة هامبورغ جام غضبه، فاضطر بسبب موجة الاستنكار العارمة التي أثارها للهروب إلى الدانمرك ثم إلى أسوج، بعد أن طرده الملك كريستيان الخامس بدوره»[1]. ولكن هذا الكاهن الشجاع كان عنيداً، ورغبته بتعدد الزوجات شديدة بحيث عاود الكرة بالرغم من سخط الكنيسة ورقابتها، ونشر بعد ثماني سنوات، عام 1682، كتاباً بعنوان انتصار تعدد الزوجات Polygamia Triomphatrix. ولا بد أن هذا الكتاب كان له وقع الصاعقة في صمت الأديرة الصارم، إذ إن إغداق المديح على ممارسات المسلمين في تلك الفترة، كان مرادفاً للتحالف مع العدو: فالإسلام كان على مشارف أوروبا منذ سقوط بيزنطية عام 1453 على يد السلطان

(1) Alain Grosrichard, *Stucture du serail: La fiction du despotisme asiatique dans l'Occident laïque, connexion du champ freudien,* Collection dirigée par Jacques Lacan. Édition du Seuil, Paris, 1979, p. 145.

محمد الثاني وجيشه المؤلف من مئة ألف محارب، مشاةً ومدفعيين وبحارة[2]. وكانت العواصم الأوروبية تعيش تحت تهديد الغزو الإسلامي. وفي الواقع، في عام 1683، أي بعد عام على صدور كتاب الكاهن، ضربت جيوش السلطان العثماني الحصار على فيينا. ولكن الأهم في هذه المسألة أن هذا الكاهن الألماني لم يكن وحده الذي يحلم بالحريم. فقد كان الكثيرون من أبناء بلده، إذ أكرهتهم الكنيسة على الزواج الأحادي، يداعبون، في ظلال أجراس الكنائس، العديد من النساء في حريم من نسج خيالهم، لأن الكتاب المذكور سوف يعاد نشره في أكثر من طبعة حتى عام 1703[3].

وتوضح قضية الكاهن ليزر العلاقة الغامضة في نفسية الرجل الأوروبي بين الخوف من الإسلام والرغبة بالحريم. فإدانة الرغبة بامتلاك العديد من النساء تعني رفض المسلم. وبالتالي، يجب الرأفة بالسيد جان ماري لوبن، بطل العنصرية المناهضة للعرب في فرنسا، لأن

---

(2) أذكر لهواة الأرقام وصفاً آخر لسقوط القسطنطينية:
In 1453, Mehemet "The Conqueror" (1451- 1481) captures Constantinople and subdues the Byzantine empire after seven week siege employing over 100 000 troups, naval units and artillery". Marshall G.S. Hodgson volume II of *The Venture of Islam: Conscience and history in a world civilisation*, the University of Chicago Press, 1958 et 1959, p. 429.

(3) Alain Grosrichard, *Structure du sérail*, p. 145.

هذا الرجل المسكين يملك الحق في مواطنة واحدة في حين أن أي مهاجر من شمال أفريقيا يمكن أن يتنعَّم في أحضان أربع نساء. وقد يثير أقل من ذلك الجنون في مؤتمرات حزب الجبهة الوطنية. ويعني العداء للمسلم ولا سيما التركي والعربي، إبعاد الإغراء الشيطاني لظاهرة «المزواجية». وترى سارة غراهام - براون أن استيهام الحريم يعني «إطلاق العنان للذة استيهام جنسي إكزوتيكي يتخطى القيود والمحرمات التي تفرضها الثقافة الأوروبية». واستناداً إلى هذا التحديد، كان الحريم يتماهى مع السيطرة المطلقة للرجال على النساء: «فبالإضافة إلى التمتع بأربع زوجات، هناك التمتع بعدد لا يحصى من الخليلات»[4]. ومما يثير المزيد من الفضول أن العصور المعروفة بعصور **التنوير** سوف تشهد تعاظماً للرغبة بالحريم: فكلما اعتبر الأوروبيون أنفسهم عقلانيين ومحبين للمساواة، تعاظم انبهارهم بالشرق. وكلما تعاظم هذا الانبهار، اشتد الهوس بالبعد الشبقي. وبينما كان

---

(4) *To indulge in the excitement of an exotic sexual fantasy beyond the reach of the constraints and taboos of european culture, the harem, pictured in this way, was identified with complete male domination over women's lives and the apparently untrammelled sexual pleasures of four wives and unlimited numbers of concubines...".* Sarah Graham-Brown, in *Images of Women: The portrayal of Women in Photography of the Middle East,* 1860-1950. Columbia University Press, New York, 1988. Graham. p. 71.

المواطنون يطلقون العنان لاستيهاماتهم، كانت المواطنات «يتحزْمنَّ».

ونحن اليوم نتبع هذه النزعة الأوروبية في حين كان الوضع خلاف ذلك في القرن الثامن عشر: «طوال قرون عديدة، استقطب «سراي» أو قصر «السلطان الأعظم» اهتمام الغرب، لا سيما أنه كان سرياً. ولذا كان من الطبيعي أن تثير فضولاً عارماً الزيارة الرسمية التي قام بها إلى باريس عام 1721 ثم عام 1742، سفيران موفدان من قبل السلطان العثماني لتعزيز انفتاح بلاده على الخارج. وأصبح كل ما هو تركي رائجاً في باريس، وانتشر في الديكورات الداخلية والأزياء والمسرح والأوبرا والروايات العاطفية والرسم...»[5]. وفي عام 1631، أنجز الرسام الهولندي رمبرانت لوحة له بزي شرقي، وقفطان فاخر، وعمامة مشدودة بإحكام، وحلة مرمية بعظمة على الكتفين، وصولجان - وكان كلبه الجعيد الصغير يمثل اللون المحلي الوحيد في هذه اللوحة[6].

---

(5) Lynne Thornton. *La Femme dans la peinture orientaliste*. ACR, Paris, 1985,
وقد نقله إلى الإنكليزية Jerome Coignard et Yves Thoraval, p. 8.
والعنوان الأصلي للكتاب:
Women as portrayed in orientalist painting.

(6) Self-portrait in oriental costume, in Rembrandt, written and illustrated by Mike Venezia Childrens Press, Chicago, 1988, p. 19.

وراحت الأوروبيات تلبسن أزياء شرقية لإغواء أزواجهن: «وحتى لو كانت النزعة التركية قد تلاشت كلياً في أواسط القرن الثامن عشر، فقد ظل الشرق يمارس تأثيراً في الأزياء. وفي عام 1778، كانت الملكة ماري-أنطوانيت ووصيفاتها يرتدين أثواباً «على الطريقة السلطانية»، وصدريةً «على الطريقة المشرقية». وخلال حملة بونابرت على مصر، اعتمدت الباريسيات الزي «المملوكي»، في حين راجت العمامة التي تغطي الشعر بعد زيارة السفير التركي السيد علي أفندي عام 1802...»[7]. ولا ننسى اللوحات التي كان الأوروبيون والأوروبيات يطلبون من الرسامين إنجازها لحسابهم، سواء كانت لوحات شخصية تمثلهم بأزياء شرقية، أو لوحات تصور الحريم والمحظيات. ولم تتوقف هذه النزعة بدءاً من ماركيزة دو بومبادور، عشيقة الملك لويس الخامس عشر، التي استمتعت بلوحة «السلطانة تتناول القهوة التي تقدمها لها أَمَتها الزنجية» للفنان كارل فان لو، وقبلت أن تكون له نموذجاً[8]، وصولاً إلى المعجبين بلوحات ماتيس في أوائل القرن العشرين. لقد كان الشرق يمثل المتعة والترف بالنسبة إلى الفنانين والرحالة. وكان

(7) Lynne Thornton. *La Femme dans la peinture orientaliste*, p. 10.

(8) Lynne Thornton. *La Femme dans la peinture orientaliste*., op.cit. p. 6. Ce tableau est actuellement au Musée des Arts Décoratifs.

الحريم المكان الذي يمكن ممارسة الخطيئة فيه دون قيود: «كان الحريم نقيضاً للزواج الأحادي المسيحي بمحرماته الجنسية ومشاكله العاطفية. وكان الاستيهام يشبع هذه الرغبة بالانعتاق من قيوده الصارمة»(9).

وقد تساءل فيكتور هوغو، في مقدمة ديوانه الشعري **الشرقيات**، المؤرَّخة في كانون الثاني/يناير عام 1829، عن سبب اختياره لهذا العنوان، معترفاً بأنه لا يملك جواباً واضحاً: «إذا ما سأل أحدهم الشاعر عن جدوى **الشرقيات**، والسبب الذي ألهمه هذه النزهة في الشرق على مدى ديوان شعري، والمغزى من هذا الكتاب العديم الفائدة من الشعر الخالص، الملقى وسط هموم القراء ومشاغلهم...، سوف يجيب بأنه لا يعرف، وبأن الفكرة خطرت بباله، وبصورة مضحكة، الصيف الماضي، حين كان يتأمل غروب الشمس»(10). ثم يقترح هوغو فكرة عبقرية قد تساعدنا اليوم على تأويل سلوك جيراننا (الخوف من الإسلام مثلاً). وتقوم هذه الفكرة على أن الشرق أضحى عنصراً بارزاً في الهوية الأوروبية: «...يثير الشرق الاهتمام أكثر من أي وقت مضى. ولم

(9) Le harem était: *the antithesis of Christian monogamy with its sexual taboos and emotional problems which the fantasy wished to escape*, in Sarah Graham-Brown. *Images of Women*, p. 9.

(10) Victor Hugo: *Les Orientales*. G.F. Flammarion. Paris édition de 1968. p. 320.

تشهد الدراسات الشرقية هذا الانتشار قط من ذي قبل. **ففي عصر لويس الرابع عشر، كانت النزعة هيللينية، أما اليوم فقد أصبحت النزعة استشراقية**. ولم يحدث قط أن سبرت كل هذه العقول الفذة ذاك الغور السحيق الذي تمثله آسيا. ولدينا اليوم عالم متخصص في كل لغة من لغات الشرق، بدءاً من الصين وصولاً إلى مصر. لقد أصبح الشرق بالنسبة إلى العقول والمخيلات مثار اهتمام قد يكون مؤلف هذا الديوان أذعن له دون علم منه. وجاءت الألوان الشرقية من تلقاء نفسها لتطبع كل أفكاره وأحلامه، فتحوّلت هذه الأفكار والأحلام، مرة تلو الأخرى، ودون أن يشأ ذلك تقريباً، عبرانية وتركية ويونانية وفارسية وعربية بل إسبانية، لأن إسبانيا لا تزال تمثل الشرق، فإسبانيا نصف أفريقية، وأفريقيا نصف آسيوية»[11].

وينهي فكتور هوغو هذا التحليل الذي قام به منذ قرنين بنبوءة لم تتحقق بالطبع، إذ توقع أن ترجح كفة الميزان لصالح الشرق: «... ومن ثم، فالشرق مدعو للاضطلاع بدور في الغرب على صعيد الفتوحات والآداب، وربما في القريب العاجل... فها هو استقرار أوروبا يوشك أن يتزعزع، والمراوحة الأوروبية التي هي أصلاً عفنة ومتشققة، تتصدع من جهة القسطنطينية. وكل

(11) Victor Hugo, *Les Orientales*. op.cit. p. 322.

القارة تميل وترنو نحو الشرق. وسوف نشهد أموراً عظيمة»[12]. وللأسف، فقد كان فكتور هوغو شاعراً عظيماً، ولكنه يعاني من قصر النظر في دور **الشوَّاف** (المستبصر)، لأن العكس تماماً قد حدث، أي هزيمة الشرق واستعماره من قبل الجيوش الغربية.

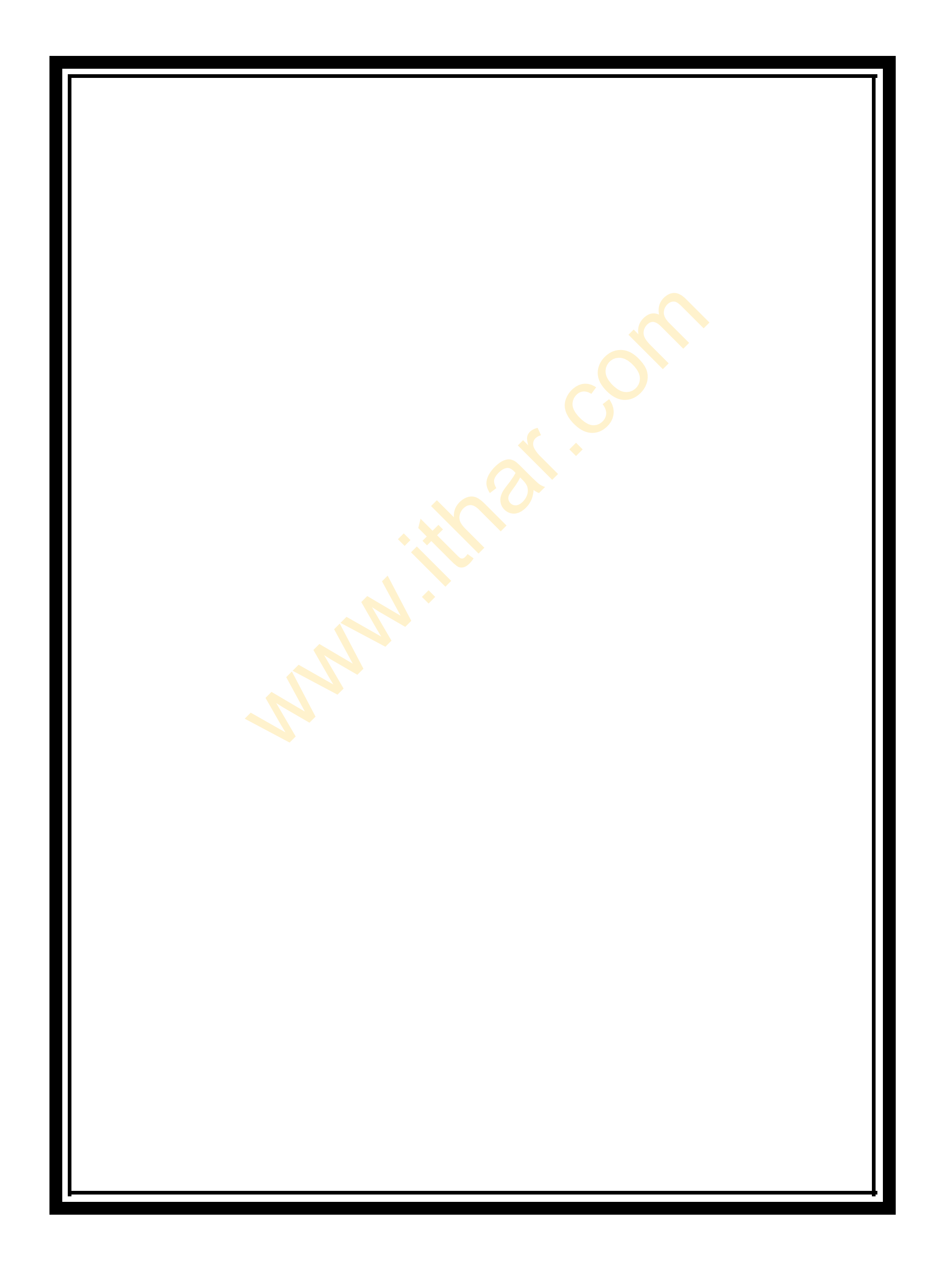
وماذا بعد؟ هل وضع استعمار الشرق وإذلاله حداً لاستيهامات جيراننا حول الحريم؟

---

(12) Victor Hugo, *Les Orientales*. idem.

الفصل التاسع

عام 1828، كان فيكتور هوغو يحلم بسلطانة



عام 1828، كان فكتور هوغو يحلم بسلطانة. وفي عام 1830، سقطت أخيراً الجزائر، أحد أقاليم الامبراطورية العثمانية، بأيدي الجيوش الفرنسية بعد حصار طويل. فهل ثمة علاقة بين الأحلام الإيروتيكية ظاهرياً لشاعرٍ، والحسابات الدقيقة للمخططين العسكريين؟ لعل فكتور هوغو كان سينكر وجود هذه العلاقة على الأرجح. وقد ولد هذا الشاعر عام 1802، «وكان الإبن الثالث لليوبولد سيغيزبير، الذي كان عسكرياً، وصوفي تريبوشي». وسوف يبدأ هوغو حياته المهنية والغرامية باكراً، وينجح فيهما دون مشقة ظاهرياً[1]. كان الطفل المعجزة في عصره (فقد نال في سن الثامنة عشرة مكافأة مالية ملكية لقصيدة غنائية نظمها، وحاز في الثالثة والعشرين، عام 1825، وسام جوقة

(1) Chronologie de Jean Gaudon prefaçant les *Orientales* de Victor Hugo, G.F. Flammarion. Paris, 1968, p. 7.

الشرف). وقد أغرم بأديل فوشيه في السابعة عشرة، وتزوجها في العشرين. وكانت كل هذه الأمور طبيعية في فرنسا خلال القرن التاسع عشر. ولكن ما لم يكن طبيعياً، كانت رغبته التي لم يفهمها أصلاً، في الكتابة عن الشرق، لا سيما قصيدته **السلطانة المحظية** التي نظمها عام 1828، ويصف فيها نفسه وسط حريم شبق، يحاول إقناع عشيقة وهمية تأبى أن تتقاسمه مع غيرها من النساء:

« آهٍ! أيتها الغيورة بين الغيورات!
الرائعة الجمال بفؤادك القاسي!
إغفري لنسائي الأخريات...
ألست ملكاً لك؟ فما همك
حين تطوقك ذراعاي
أن تخمد مئة امرأة قد أمضّهن الشوق
عبثاً على بابي
تأوهاتهن في تنهيدات ملتهبة! »[2]

لماذا يتسلل هذا الزوج الغربي السعيد إلى أكثر أراضي السلاطين العثمانيين سريةً، ويحتل موقعهم إلى جوار النساء؟ يمنع فكتور هوغو القارىء من طرح هذا السؤال. وفي مطلق الأحوال، يتوجه إلى نقاده في مقدمة ديوانه قائلاً: «ليس صاحب الديوان من الذين يعترفون

(2) Victor Hugo, *Les Orientales*, Flammarion, Paris 1968, p. 365.

بحق مساءلة الشاعر عن نزوته، أو سبب اختياره هذا الموضوع، أو تهميشه لذاك اللون، أو قطفه ثمار تلك الشجرة، أو نهله من ذاك الينبوع. هل العمل ناجح أم فاشل؟ ذلك هو ميدان النقد... فالفن لا يعرف الحدود والأصفاد والكمامات، بل يقول لك: إمضِ!، ويطلقك في هذه الحديقة الشعرية الغنَّاء التي لا توجد فيها فاكهة محرَّمة»[3].

وهنا، نكتشف السر: فشاعرنا يزعم أنه يتمتع بحرية مطلقة. ولكن كيف يبرِّر ممارسته هذه الحرية للتسلل داخل حريم شرقي والتربع على عرش السلطان؟ لماذا لم يطلق العنان لأحلامه في مكان آخر؟ وتكمن المشكلة في أنه لم يكن وحده يرنو إلى الشرق، فالغرب قاطبةً كان منجذباً، بصورة لا تقاوم، نحو الشرق، على خطى الجيوش الاستعمارية، لاحتلال قصور هذا الشرق الذي أصبح ذليلاً ومهاناً ومحتلاً. وقد قام شاعر آخر، جيرار دو نرفال، باقتناء أمَةٍ من جزيرة جافا أثناء إقامته في القاهرة عام 1843: «لقد قيل لي إنني أستطيع إلغاء الصفقة في مهلة ثمانية أيام لو تبين لي أن النخَّاس قد خدعني حول مواصفات الأمَة، أو أنها تشكو من عيب يستدعي إبطال البيع؛ ولم أعتقد قط أن أوروبياً قد يلجأ إلى هذا

(3) Victor Hugo, préface écrite en 1829 à son recueil *Les Orientales*, op.cit. page 320.

البند المخجل ولو تعرض للاحتيال. . . ولقد غفت الطفلة المسكينة، فيما كنت أتأمل شعرها باهتمام المالك الذي يشعر بالقلق من العيوب التي قد تشوب السلعة التي اشتراها»[4]. وسوف يصبح القرن التاسع عشر قرن الحمَّى الاستشراقية المستشرية. فصارت المتاحف وصالات العرض تحفل بلوحات المحظيات والحريم مع المدافع الجلية في خلفيتها: احتلال فرنسا للجزائر عام 1830، إعلان الانتداب الفرنسي في تونس عام 1881، احتلال الإنكليز لمصر عام 1882، احتلال إيطاليا لليبيا وإعلان الانتداب الفرنسي في المغرب عام 1912، واحتلال الانكليز لبغداد والقدس عام 1917.

لقد كان الشرق الخاضع للاستعمار، بالرغم من هزيمته بل وبسببها تحديداً، ينتقم ويجعل المستعمر مهووساً من خلال استيهام الحريم: فقد كان الإنكليزي جون فريديريك لويس، الذي ولد عام 1805 في والتون أون تايمز، من المتأنقين يرتاد الأندية الراقية، ولكنه عندما زار القاهرة، لبس زياً شرقياً، «وقد عاش في القاهرة، متنكراً بزي أحد الأعيان العثمانيين، في منزل مملوكي بحي الأزبكية»[5]. وقد أقام في القاهرة حوالي عشر

(4) Gérard de Nerval *Le harem* in "Voyage d'Orient", vol I Flammarion. 1980, pp. 244 et 245.

(5) Lynne Thornton. *La Femme dans la peinture orientaliste*, op.cit. p. 244.

سنوات من عام 1841 حتى عام 1851، ورسم مشاهد كثيرة من الحريم أبرزها لوحة «الحياة في الحريم» (وهذه اللوحة معروضة حالياً في متحف فيكتوريا وألبرت بلندن)، وتصور نساء شابات رهيفات يلبسن الحرير والقطيفة ويحلمن وراء المشربيات. وكان حريم جون فريديريك لويس مذهلاً لا سيما وأن الفنان لم يطأ عتبة حريم حقيقي قط، لأن المصريين كانوا لا يسمحون للأجانب بالدخول إلى حريمهم. وقد اكتفى لويس، على الأرجح، ببعض القراءات، من أجل إغناء مخيلته، ولا سيما الفصول التي خصصها للحريم عالم الآثار المصرية، إدوارد لاين، صاحب الكتاب الشهير **عادات وتقاليد المصريين في العصر الحديث** الصادر في لندن عام 1836.

وقد ولد إدوارد وليم لاين في هيرفورد عام 1801، وكان يكسب عيشه من عمله كنقاش، ولكنه سرعان ما تخلى عن مهنته وقصد مصر حيث أمضى أجمل سنوات حياته، بين الرابعة والعشرين والسابعة والأربعين، بما أنه قد أقام فيها في الفترة الممتدة بين عامي 1825 و1849. ويتحدث لاين كثيراً عن النساء في كتابه عن مصر، سواء في الفصول الثلاثة التي يكرسها لوصف الحياة المنزلية، أو في الفصل المخصص للحمّام الذي يصف فيه بدقة فائقة طقطقة المدلّك للعظام. وكان لاين أكثر انبهاراً بحركات المدلك الذي يسميه بين الحين والآخر «قائد

العمليات»، واسمه المصري **المكيِّساتي** (أو الكيّاس في المغرب). ويسعنا أن نتخيل هلعه في المرة الأولى التي دخل فيها إلى الحمّام: «يجلس الزبون على رخام الفسقية، أو يتمدد على قماشة تأهباً للخضوع إلى العملية الأولى التي تقوم على طقطقة المفاصل. وتسمى هذه العملية «طقطقة»، فيقوم قائد العمليات بطقطقة كل مفاصل الجسم: فيطقطق الفقرات لاوياً الجسم إلى جهة ثم إلى الجهة الأخرى. وحتى العنق يخضع للمعاملة نفسها، ويجب أن نسمعه يطقطق مرتين، بالضغط على الرأس وإدارته بقوة في اتجاه ثم في الاتجاه الآخر، مما يولد لدى الشخص غير المعتاد على ذلك إحساساً مرعباً في الواقع. وتلوى كل أذن حتى تسمع الطقطقة، وكذلك الأطراف بعنف، على الأقل ظاهرياً. والغاية من كل هذه العمليات إضفاء المرونة على المفاصل. وهكذا يعرك المكيِّساتي جسد المستحم كالعجينة...»[6].

(6) "The bather sits on the marble seat of the faskeeyeh, or lies upon a napkin... to submit the first operation, which is that of cracking his joints. This is called " taktakah ". The operator cracks almost every joint of his frame: he wrings the body, first one way, and then the other, to make several of the vertebrae crack. Even the neck is made to crack twice, by wrenching the head around, each way, which produces a sensation rather alarming to an inexperienced person; and each ear is generally twisted round until it cracks; the limbs are wrested with apparent violence; but with such skill, that an untoward accident in this operation is never heard of. The main object of

وفي الفصل المخصص للرقص، لا يخفي لاين استهجانه أمام الإثارة الفاسقة التي تتراءى لدى الراقصات: «إنهن يقدمن عرضهن في الشارع... ويفتقر رقصهن إلى الأناقة، ويقوم أساساً على الهز السريع للأرداف يمنة ويسرة...»[7]. وكان هذا الأرستقراطي الانكليزي مرتاعاً للإثارة المحمومة التي تبدر عن الراقصات المصريات اللواتي ينتقدهن لأنهن شبه عاريات، ويفتقرن إلى التواضع والحشمة، واثقات من تأثيرهن المخدِّر على المارة البسطاء الذي يقعون فريسة لسحرهن[8]. وأخيراً، في الملحق الذي يفصل زينة النساء، لا يسع الكاتب إلا أن يلاحظ بأن نساء القاهرة يعشقن الماس، ويتدبرن أمرهن

= this process is to render the joints supple''. The mukeyyisatee also kneads the bather's flesh. Edward Lane. *The Manners and Customs of Modern Egyptians*. Everyman's Library. Dutton. New York, edition de 1966, p. 346.

(7) "They perform in public streets... Their dancing has little of elegance: its chief peculiarity being a very rapid vibrating motion of the hips, from side to side''. Edward Lane. *The Manners and Customs of Modern Egyptians*, p. 384.

(8) Some of them, when they exhibit in front of a party of men, wear nothing but the shintiyan (or trousers) and a tob (or veryfull, long, wide-sleeved shirt or gown) of semi- transparent, coloured gauze, open nearly half-way down the front. To extinguish the least spark of modesty which they may yet sometimes affect to retain, they are plentifully supplied with brandy or some other intoxicationg liquor. The scenes which ensue cannot be described ". Edward Lane. *The Manners and Customs of Modern Egyptians*, p. 384.

«ليدفع» أزواجهن ثمن هذا العشق[9]. وتنم هذه الملاحظة البسيطة عن بخل السيد لاين، ومن خلاله، عن بخل الأزواج الإنكليز، ولست أنا من يقول ذلك فقط. ويكفي أن نعيد قراءة فرجينيا وولف التي تصف الأزواج الإنكليز البخلاء الذين يضنّون على زوجاتهم بالهدايا، وهذا أحد الأسباب التي جعلت النساء الإنكليزيات ينصرفن إلى تأليف الروايات الأدبية في أواخر القرن الثامن عشر لتأمين مصروفهن[10]. وقد ذاعت شهرة لاين كذلك بفضل ترجمته لكتاب ألف ليلة وليلة التي صدرت عام 1839، وشكلت حدثاً أدبياً. ولا يسعنا في الواقع تفهم هذا الانجذاب ما لم نتذكر أن الأخلاق المسيحية (الطهرانية التي تدين الترف والمتعة) ظلت تؤرق الأذهان، وتعتبر اللذة، حتى في إطار الزواج، رذيلة وخطيئة خلافاً لما يقوله الإسلام الذي يرى في المتعة داخل الزواج أحد امتيازات المؤمن.

---

(9) "The wives even of petty tradesmen sometimes wear the diamond kurs: they are extremely fond of diamonds, and generally endeavour to get some, however bad". Edward Lane. *The Manners and Customs of Modern Egyptians*, p. 567.

(10) ... Hundreds of women began as the eighteenth century drew on to add to their pin money, or to come to the rescue of their families by making translations or writing the innumerable bad novels which have ceased to be recorded even in text-books, but are to be picked up in the fourpenny boxes in the Charing Cross Road." Virginia Wolf. *A Room of One's Own*. p. 68.

الفصل العاشر

الخصي الأوروبي

يرى القديس أغسطينوس أن **المسيحية لا تعترف بالمتعة**، بل وتحض على تفادي اللذة حتى في إطار الزواج. وهنا، يواجه جيراننا المسيحيون مشكلة عويصة إذ إن أحد الامتيازات العظيمة التي يتمتع بها المسلم هو حقه في المتعة. وأود في هذا الفصل القول إن وضع المتعة في كل من الديانتين يشكل أحد التفسيرات المحتملة للحريم الأوروبي. وأعتقد أن رغبة الغربيين في الحصول على حريم ناجمة عن كونهم مجبرين على الارتحال إلى الشرق «للاستمتاع»، لأن المسيحية تحرم عليهم المتعة. ويعتبر الجنس أحد نقاط الخلاف الأساسية والمطلقة بين الإسلام والمسيحية: فالمسيحي الصالح محروم من المتعة حتى في إطار الزواج، في حين أن هذه المتعة تندرج ضمن الأمور **الحلال** التي تحق للمسلم. وكان القديس أغسطينوس يذكِّر الزوج دائماً بأن الكنيسة لا تقبل أن يستمتع المؤمن حتى مع زوجته، وأن الزوج

المثالي هو الذي يضبط نفسه باستمرار ويعيش حالة من الامتناع كما لو أنه في صوم دائم: «يجب على الأزواج الامتناع عن المتعة طوال السنة. . . لأن الذي يسعى دون اعتدال وراء الأشياء المحللة يسيء للذي أحلّها له»[1].

وللتأكد من وضوح هذه الرسالة، يتسلل القديس أغسطينوس إلى مخدع الزوجين: «من المؤكد أنه كلما امتنع أحدهما عن الآخر، كان ذلك أفضل لهما». ويقدم لنا جان-لوي فلاندران، مؤلف كتاب **وقت لتبادل القبل: بحثاً عن أصول الأخلاق الجنسية الغربية، القرن السادس والقرن الحادي عشر**، وفي معرض تعليقه على هذا القول للقديس أغسطينوس، أحد مفاتيح اللغز الذي يكتنف انبهار الغربيين بالحريم، أي رفض المسيحية للمتعة: «لا يتعلق الأمر بالتخفيف من الرغبة والاكتفاء بالعلاقة الجسدية من أجل التناسل، بل المقاومة قدر الإمكان،

(1) Saint Augustin "Sermon 210 in Quadragesima" *Nunc tempus est, quo et conjugati ab uxoribus et nuptae a suis viris abstineant, ut orationibus vacent: quanquam et per totum annum certis diebus hoc facere debeant, et quanto crebrius, tanto utique melius: quia et qui concessa immoderate appetit, eum qui concessit offendet. Oratio quippe spiritualils res est, et ideo tanto est acceptior quanto magis animus qui eam fundit a carnali voluptate* (Migne, Pl. XXX- VIII, 1052, cite dans la note n 33 de la page 123, le texte latin est donne dans les notes a la fin du livre en page 235 de Jean Louis Flandrin. *Un temps pour embrasser: aux origines de la morale sexuelle occidentale*. VIe/ XI siecles, Editions du Seuil, 1983.

وعدم الوقوع في فخ النشوة الجنسية. فالروح والجسد متناقضان، ولا يجب السعي لإيجاد التوازن بينهما بل الانصراف إلى الأمور الروحية قدر المستطاع»[2].

وسوف يرتحل الأوروبيون المسجونون في علاقة زوجية لا مكان فيها للمتعة، بخيالهم إلى الشرق حيث الديانة تعظِّم المتعة الجنسية وتصنِّفها من بين خيرات الحياة الدنيوية، وترى فيها تجسيداً من بين غيرها للثروات الطبيعية التي توفر السعادة كالجياد الأصيلة والأراضي الخصيبة والمحاصيل الوفيرة: ﴿زين للناس حبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ (سورة آل عمران، 3 / 14). وتشكل النساء بصفتهن مصدراً للمتعة جزءاً من أفراح الدنيا تلك، وسوف يكافأ المؤمنون في الحياة الأخرى بحور العين أو نساء الجنة»[3].

يا للاختلاف الشاسع بين الديانتين! ويرى الآن

---

(2) Jean Louis Flandrin. *Un temps pour embrasser: aux origines de la morale sexuelle occidentale. VIe/XIe siécles*. Éditions du Seuil, 1983, p. 124.

(3) أنظر الآيات الأخرى التي «تعتبر فيها النساء والبنون من الثروات المادية» والتعليقات في كتاب:

Fatna Ait Sabbah, dans *La femme dans l'inconscient musulman*, Albin Michel, 1986. p.. 140 et suivantes.

غروريشار أن الزواج المسيحي قد يؤدي بصورة مثالية إلى إخصاء حقيقي بما أن الرجل يجب أن يتفادى الاستمتاع مع زوجته: «أليس الخصي في الواقع هو الذي يجب أن تتعلم المرأة المسيحية الحقة اشتهاءه وعشقه في الرجل الذي تقترن به؟ أليست مضاجعة الخصي ذروة الزواج المسيحي، وأقدس واجب زوجي، وكذلك السبيل الوحيد نحو غبطة خالصة...»[4]. وسوف يكون الخصي حاضراً كثيراً في الحريم الأوروبي، حيث لا يوجد في أغلب الأحيان سوى نساء ينتظرن. وكان الفنانون على غرار إنغر وماتيس اللذين أبدعا حريماً على قماشة اللوحة لا يصورون أنفسهم مطلقاً خلافاً لرسامي المنمنمات المسلمين الذين كانوا لا يدعوا الفرصة تفوتهم لتصوير رجل يتوسط لوحاتهم. ويبدو هذا الرجل مسترخياً وسط النساء في حريم المنمنمات الإسلامية للفنانين الفرس والأتراك والمغول (والمغول سلالة مسلمة من الهند لا يجب الخلط بينها وبين المنغوليين الذين يتحدَّرون من أقاصي الصين). ولكن الرجل الغربي يحكم على نفسه بالتواري في اللوحة، ويكون، بصورة غريبة، في موقع المتلصِّص.

(4) Alain Grosrichard, *Structure du sérail: La fiction du despotisme oriental dans l'Occident classique*. Èditions du Seuil, Paris 1979, pp. 197 et 198.

ويرى إدوارد لوسي ـ سميث، في كتابه **الجنس في الفن الغربي** أن هذا الموقف المتلصِّص يتجلى في كل الفن الإيروتيكي الغربي: «يضعنا كل عمل فني ذو طابع إيروتيكي في موقع المتلصِّص الذي يقوم على البقاء على مسافة من الفعل، فالمتلصِّص يتأمله ويشارك فيه في مخيلته، ويحصل على المتعة لا بالمشاركة بل بالنظرة التي يرمق بها ما يجري أو ما سيحدث. وعلى صعيد التحليل النفسي، تعتبر المتعة التي يجلبها الفن الإيروتيكي بمثابة الانحراف... ويشكل الجسد الأنثوي العاري بصورة خاصة الموضوع النموذجي في الفن الأوروبي... إذا ما اعتبرنا «عارياً»، الجسد الوحيد غير الواعي للنظرة التي تتأمله»[5]. ويتعلق الاختلاف الآخر بين فناني الثقافتين بالعري: فالمحظيات يظهرن عاريات تماماً في حريم الفنانين الأوروبيين بعكس المنمنمات الفارسية التي تنضح فيها النساء الإيروتيكيات إثارةً تحت طبقات الثياب. ولا ننسى الأغنية المغربية التي شاعت في الستينيات **قفطانك محلول يا للا**. ولكن، وبالعودة إلى الحريم الغربي،

---

(5) Edward Lucie- Smith. La sexualité dans l'art occidental, p. 171.
أنظر لمزيد من المعلومات الفصل الخامس *Le hammam et le boudoir* في أطروحة ليلى فرهود:
L'espace et l'autre: la peinture orientaliste française et britannique du XIXe siècle. Université de Paris, Panthéon- Sorbonne, mai 1986.

نخلص إلى أن الرجل الوحيد الذي يجيز الفنان وجوده في حريمه هو الخصي الغامض. لماذا؟

غالباً ما يظهر الخصيان في اللوحات الاستشراقية كما في لوحة **المحظية والعبد** لجان ـ أوغست ـ دومينيك إنغر (1824)، «وفيها تتثاءب المحظية المسترخية فوق أقمشة براقة، مسحورة بالموسيقى التي يعزفها لها عبدها؛ ويبدو على المحظية الاستسلام والإذعان برأسها المنحني إلى الخلف، وشعرها المرسل، وذراعيها المرفوعين. وبالرغم من أنها تستمتع مسترخيةً بإحساس الرفاه، تخلف السحنة الجامدة للخصي الأسود الذي يراقب المشهد، في الخلف، شعوراً بالقلق»[6]. وسوف يكون الخصيان حاضرين دائماً في اللوحات. ويحدد الخيال الغربي الخصي على أنه كائن شرقي أصيل، متناسياً أنه كان في البداية، وقبل ظهور الإسلام، وليد العالم المسيحي المهووس بمثال العفة، حيث تمادت بعض الفرق الدينية في رغبتها بالامتناع عن الجنس، وخصى أعضاؤها أنفسهم للفوز «بملكوت السماوات». وكان ترتوليان يقول: «إن ملكوت السماوات مفتوح للخصيان»[7]. وبغض النظر عن الخصيان المرتبطين بالفرق الدينية، تفرّد

(6) Lynne Thornton, *La femme dans la peinture orientaliste*, p. 116

(7) *The Kingdom of heaven is thrown open to eunuchs*, declared Tertullian. Penzer. *The Harem*, op.cit. p. 136.

الأوروبيون بعشقهم لمطربي الأوبرا الخصيان خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

في الفترة التي كان يرسم فيها إنغر خصيه الشرقي، كان المؤمنون الإيطاليون يطربون لصوت خصيانهم المنشدين الذين يتم إخصاؤهم في سن مبكرة جداً، والذين ينتمون إلى الجوق البابوي في كنيسة سكستين. «بالرغم من أن البابا بنيديكت الرابع عشر حظَّر الإخصاء، استمرت هذه العادة حتى عهد البابا ليون الثالث عشر عام 1878»(8). ولكن روعة الأصوات الشجية التي يتمتع بها المطربون الخصيان لم تكن حكراً على النخبة التي تستطيع الدخول إلى الكنيسة بل تحولت إلى شغف حقيقي في كل أنحاء أوروبا. «كانت الموسيقى وحفلات الاستقبال في القرن السابع عشر تضج بتألق الصوت المرهف لكلٍّ من دومينيكو سيتشي أو بالداساري فيري. وقد عقدت الملكة كريستين هدنة مع بولندة حيث كان يغني هذا الخصي لتدعوه إلى ستوكهولم...»(9).

وتواصل الافتتان بالخصيان طوال القرن الثامن عشر

(8) Penzer. *The Harem*, op.cit. p. 136.

(9) Dominique Fernandez, introduction au *Traité des eunuques* de Charles Ancillon. Éditions Ramsay, Paris, 1978, p. 25.

ولمزيد من المعلومات حول ظاهرة مطربي الأوبرا الخصيان، ينصح فرنانديز بالرجوع إلى الكتاب التالي:

Angus Heriot *The Castrati in opera,* Secker and Warburg, London 1956.

بموازاة معركة الأوروبيين لحقوق الإنسان والمواطن. وقد ذاعت شهرة مطربي الأوبرا الإيطاليين الخصيان في كل أوروبا أمثال نيكوليني وغريمالدي وسينيزينو وفارينيللي[10]. وقد ندَّد المفكرون الأوروبيون أمثال جان جاك روسو بإخصاء المطربين، وشجب روسو هذه العادة الهمجية في **موسوعة الموسيقى** التي وضعها: «لا تعوِّض ميزة الصوت لدى المطربين الخصيان خسائر كثيرة أخرى؛ فهؤلاء الرجال الذين يجيدون الغناء، إنما دون حرارة أو شغف، من أسوأ الممثلين على خشبة المسرح، يفقدون صوتهم سريعاً ويتكون لديهم كرش مقرف، ويتحدثون ويلفظون بأسوأ مما يفعل الرجال العاديون، بل ثمة حروف كحرف الراء لا يستطيعون لفظها مطلقاً»[11]. غير أن هذا الفيلسوف العظيم المستاء «استمتع سراً، في البندقية، في مقصورته بمسرح القديس يوحنا فم الذهب، «بالغناء الرقيق والمنسجم» و «الأناشيد الملائكية» التي كانت حنجرة كاريستيني تغدقها على الحاضرين»[12]. ويثبت كل ما سبق أن الفن والأدب في الغرب، طوال هذه القرون، سوف يصور الخصي على أنه غرابة همجية

---

(10) Penzer. *The harem.* op.cit. p. 136.

(11) Jean- Jacques Rousseau, *Dictionnaire de Musique,* article "Castrato" cite dans Grosrichard *Structure du sérail*, p. 191.

(12) Grosrichard, *Structure du Sérail*, op.cit.

مرتبطة ارتباطاً جوهرياً بالشرق المسلم وسمةً يتميز بها الحريم العثماني[13].

ومرة أخرى، لا يعني ذلك أن الحريم في الامبراطوريات الاسلامية كان يخلو من الخصيان بل كان هؤلاء جزءاً لا يتجزأ من تراتبية الحريم، ويؤدون وظائف محددة، سواء في عهد العباسيين أو في الامبراطورية العثمانية[14]. غير أنني أشدد على وجودهم في أوروبا لنعتاد على فهم الطريقة التي تتعاطى بها النظرة الأوروبية التي تمثل، مع الاجتياح الإعلامي للسواتل الغربية، أحد مقوِّمات الهوية الحديثة للمسلمين. فنحن نعيش في عصر الاتصالات حيث تكتسب نظرة الآخر، لا سيما حول حوض المتوسط، أهمية قصوى. وبالتالي، لا يجب مرة أخرى التشتت في ردات فعل طفولية تقوم على تبادل الاتهامات المشوبة بالعنصرية، بل على العكس استخدام مثال الخصي، وكذلك بطاقة ماتيس البريدية (الفصل الخامس) بمثابة تمارين على النظرة العاكسة؛ فكل مستقبلنا مرهون بقدرتنا على إدارة قربنا من جيراننا الأوروبيين، وهي جيرة يكتنفها الحقد والانبهار معاً، ولكنها تثير أهواءنا. وما أمتع الهوى!

---

(13) Dominique Fernandez, introduction au *Traité des eunuques*, page 27.

(14) Penzer. *The harem*. p. 20.

الفصل الحادي عشر

الخصي المسلم



لقد كان الخصي معروفاً في قصور السلاطين العثمانيين. وعندما تشتت آخر حريم امبراطوري مسلم رسمياً، وألغيت هذه المؤسسة نفسها عام 1909 إثر خلع السلطان عبد الحميد عام 1908 على يد الشباب الأتراك، تبين أن هذا السلطان كان يملك في قصره 370 محظية و127 خصياً لخدمته[1]. وقد أرغم على العيش في المنفى في سالونيك، ولكنه حرم من حريمه، وسمح له بأن يختار بعض المحظيات فحسب.

ويشكل إلغاء الحريم وتشتت محظيات السلطان عبد الحميد الثاني وخصيانه عام 1909 منعطفاً تاريخياً مهماً في التاريخ العثماني وتاريخ المجتمعات الإسلامية عموماً، لأن هذه التدابير أعلنت نهاية الحجر على النساء وحصولهن على التعليم كجزء لا يتجزأ من برامج

(1) Penzer. *The harem*. p. 20.

الحركات القومية[2]. وقد تبنى زعماء القومية الإسلامية على غرار أتاتورك في تركيا الحركة النسوية منذ أواخر القرن التاسع عشر، لا سيما تعليم النساء، كإحدى دعائم بناء الدولة الوطنية، وضرورة لتجديد وتنشيط المجتمعات الإسلامية أمام الغزو الاستعماري[3]. وكانت أيضاً مناسبة ليرى الغربيون للمرة الأولى أكثر النساء خضوعاً لحراسة مشددة في الامبراطورية، أي محظيات السلطان. وقد قدم فرانسيس ماك كالوف وصفاً شهيراً لهنَّ[4].

---

(2) أنظر الصفحة 80 والصفحات التالية في كتاب Sarah Graham-Brown. *Images of Women* وكذلك الفصل الذي يحمل عنوان The spread of women education، الصفحة 190 والصفحات التالية.

(3) Denitz Kandiyoti، وتلخص هذه الباحثة التركية في علم الاجتماع العلاقة بين الحركة النسوية والدولة الوطنية كما يلي: «من بين دول الشرق الأوسط وأوروبا، تعتبر تركيا جمهوريةً تناولت قضية تحرر المرأة في مرحلة مبكرة، بصورة علنية ومن خلال الإصلاحات التشريعية التي بدأها مصطفى كمال أتاتورك، مؤسس الدولة التركية الحديثة. وقد حظر القانون المدني التركي الذي اعتمد عام 1926 تعدد الزوجات، ومنح المرأة والرجل المساواة في حق الطلاق، وأعطى الأبوين حق رعاية الأطفال. وسرعان ما انعتقت النساء ومنحن حق الاقتراع في الانتخابات المحلية عام 1930، ثم على المستوى الوطني عام 1934».

In "From empire to nation state: transformations of the woman question in Turkey". op.cit. 219.

وانظر كذلك F. Mernissi "En terre d'Islam, le féminisme fut d'abord une affaire d'hommes", numero special du 8 mars 1997 de *la Vie Economique*, Casablanca, p. 5

(4) Penzer. *The harem*. p. 20.

بيد أن لا السلاطين العثمانيين ولا الخلفاء العباسيين من قبلهم اخترعوا الخصي. ويجمع كل الباحثين الغربيين الذين تناولوا هذه الظاهرة على أن عادة إخصاء الفتيان لغايات مختلفة (حراسة الحريم، الغناء، الخ. .) كانت تقليداً غربياً معروفاً لدى الإغريق والبيزنطيين، ولم يعرفه الأتراك قط قبل سقوط القسطنطينية في القرن الخامس عشر. وقد اعتمدوه لدى احتكاكهم بالعالم المسيحي: «بالرغم من أن استخدام الخصيان كان شائعاً في الشرق الأوسط والأقصى، كانت هذه العادة غير معروفة عملياً وغير ذات أهمية لدى الأتراك، قبل أن يؤسسوا عاصمتهم في أوروبا ويأخذونها عن البيزنطيين. ولم تكن هذه العادة جديدة في القسطنطينية. وبالرغم من أن دوميتيانس قد حظَّر استخدام الخصيان في القرن المسيحي الأول، فقد شاع هذا الاستخدام لدى البيزنطيين»[5]. ويضيف بنزر أن السلاطين العثمانيين الأوائل لم يعرفوا الخصيان والحريم

(5) ... Although the use of eunuchs to guard women had been customary for centuries both in the Middle and in the Far East, the practice was unknown and unecessary among the turks until they had established their capital in Europe and had begun to adopt so many of the customs of the byzantine greeks. The practice was not new to Constantinople, and although the employment of eunuchs had been forbidden by Domitian in the first century of the Christian era, we find constant mention of them in byzantine times... Penzer. *The harem*. p. 134.

ولا طقوس البلاط المعقَّدة التي اعتمدوها بعد أن فتحوا بيزنطية[6].

وتتوصل الباحثة التركية أليف لايتل كروتييه التي قامت مؤخراً بدراسة تحليلية للحريم العثماني إلى الخلاصة نفسها: لقد قام السلاطين بتقليد الحريم ومحاكاته تعبيراً عن العظمة البيزنطية التي كانوا يحلمون بها. ولا ريب أن الأتراك كانوا يمارسون تعدد الزوجات، ولكن الحريم، كبناء سلطة مع تراتبياته الصارمة وطقوسه المعقدة لم يندرج في عاداتهم قبل احتكاكهم ببيزنطية.

«كان السلطان محمد الثاني... مهووساً بتحويل عاصمته الجديدة التي أطلق عليها إسم اسطمبول إلى نسخة جديدة عن القسطنطينية، إنما أكثر عظمة وترفاً. وقد سمح للسلطانة الأم Sultane Walidé (أم ولد ترك بالتركية، أي حرفياً أم السلطان) بتنظيم قصره على طريقة خدْر (أجنحة الحريم) الامبراطورة هيلانة، أرملة قسطنطين. وكان الحريم يقع في جناح منعزل ومقصي، وراء الحدائق الداخلية، وتعيش فيه النساء حياة منفصلة تماماً عن حياة القصر... وقد اعتمد السلطان محمد الثاني عادات بيزنطية أخرى كعادة سجن أفراد العائلة

(6) "The early sultans knew nothing of eunuchs, just as they knew nothing of the harem, royal reclusion, elaborate court ceremonial or the most". Penzer. *The Harem*. p. 134.

المالكة، مؤسساً مدارس داخل القصر، وكعادة إحاطة نفسه بكوكبة من العبيد الذين كانوا يعيشون في البلاط»[7].

وتخلص الباحثة إلى أن ممارسة تعدد الزوجات، الذي كان تقليداً مسلماً قبل احتكاك الأتراك ببيزنطية، قد انسجمت انسجاماً تاماً مع العادات البيزنطية، وأتاحت للعثمانيين تطوير السراي إلى درجة لم يسبق لها مثيل. وقد كان تطوير هذه المؤسسة الذي يجسد قوتهم هو الذي جعلهم يصبحون محط الأنظار.

أما الخلفاء العباسيون فقد أنفقوا مبالغ طائلة قبل العثمانيين بقرون عديدة لاقتناء الخصيان واستخدامهم.

(7) Mme Alev Lytle Croutier, auteur du *HaremÒ the world behind the veil* (Abbeville Press, New York 1989) nous dit à la page 24: "The turkish tribes, including the Ottomans, practiced polygamy prior to the conquest of the byzantine capital, Constantinople, in 1453. Sultan Mehemed II, known to history as "the Conqueror", was obsessed with making his new metropolis, which he called Istanbul, a replica of Constantine's only more opulent. He allowed the valide sultana (mother sultana) to organize her house as nearly as possible in the manner of the gyanecea (women's appartments) of Empress Helen, widow of Constantine. The gynaecea were situated in the remotest part of her palace, lying beyond an internal court: women lived here separately, divided into task groups. Mehemed himself adopted such byzantine customs as the sequestring of royalty, establishing a palace school, and the keeping of household slaves. Islamic practice of polygamy combined neatly with these Byzantine customs and resulted in the harem".

وكان أول خليفة عباسي اشتهر بتعلقه المفرط بالخصيان، هو الأمين، ابن هارون الرشيد، وقد اعتلى عرش الخلافة عام 809 / 193 في سن الثانية والعشرين[8]. ويروي المسعودي أن الخليفة الأمين «قد قدَّم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم»[9]، بحيث أن والدته، الأميرة زبيدة الشهيرة، إبنة عم هارون الرشيد والزوجة الوحيدة من سلالة بني العباس التي أنجبت له ولداً (فقد كان أبناؤه الآخرون من الإماء)، أشاعت عادة الغلاميات لاجتذاب ابنها إلى النساء. ويقول المسعودي أنها «اتخذت الجواري المقدودات الحسان الوجوه وعممّت رؤوسهن وجعلت لهن الطُّرر والأصداغ والأقبية والقراطق والمناطق. . . وبعثت بهن إليه». ويرى المسعودي أن زبيدة وفقت في مسعاها لأن الخليفة «استحسنهن واجتذبن قلبه إليهن. . . واتخذ الناس. . . الجواري المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق، وسموهن الغلاميات»[10].

وقد استمرت ظاهرة الخصيان لفترة طويلة بعد سقوط الامبراطورية العثمانية في الكثير من الدول العربية، حتى إلغاء العبودية التي استمرت في الخفاء بالرغم من قيام

(8) الطبري والمسعودي، ورد ذكرهما في Adam Metz: *al- hadara al- Islamiya*, vol. II. p. 2

(9) المسعودي، «مروج الذهب».

(10) المسعودي، «مروج الذهب»، المجلد 4، فصل «ذكر خلافة القاهر بالله»، ص. 31.

الدول الغربية بحظرها[11]. وخلافاً لكلمة **حريم** التي أصلها عربي، من كلمة **حرام** التي تدل على المحظور

(11) لقد ألغيت العبودية في فترة متأخرة جداً في المغرب على سبيل المثال، مع العلم أن النصوص الدولية الأولى التي سعت لإلغاء العبودية, كانت تلك التي وضعتها بريطانيا عام 1806. وقد تطلب الأمر إصدار الإدارة الفرنسية عام 1922 تعميماً اعتبر النخاسة في الأسواق عملاً غير قانوني، ومنح العبيد إمكانية اللجوء إلى الإدارة الفرنسية لإعتاقهم. وقد اعتبر قانون بلايموث Plymouth Act الذي أقره مجلس العموم البريطاني عام 1807 النخاسة عملاً غير قانوني وكذلك استيراد العبيد من أراضي التاج البريطاني. وكرر قانون صادر عام 1833 حظر العبودية واتخذ التدابير اللازمة لتطبيق ذلك، وقد اعترض الكثير من الزعماء المسلمين على حظر العبودية واعتبروا ذلك «تدخلاً في الشؤون الداخلية للدول». وتمثلت الخطوة الحاسمة في المرسوم الذي أصدرته فرنسا في شهر نيسان / أبريل 1848، وألغت بموجبه العبودية في مستعمراتها، مع العلم أن العبودية قد ألغيت في فرنسا نفسها منذ شهر شباط/ فبراير 1794. وفي العالم الإسلامي، كانت تركيا أول دولة تلغي العبودية عام 1830. وقد ألغاها باي تونس في شهركانون الثاني / يناير 1846. وحظرت مصر العبودية عام 1895. وكان هذا البلد ممراً حقيقياً لتجارة الرقيق. «ففي عام 1870، كان يتم استيراد 70 ألف عبد إلى أراضي مصر سنوياً. . .»
Lejean: Voyage aux deux Nils (Nubie, Kordofan, Hachette, Paris, 1867). أما المملكة العربية السعودية فكانت أكثر الدول مناهضة لإلغاء العبودية، وقد قبل عاهلها على مضض العدول عن جباية الضرائب عن استيراد العبيد عام 1927، وقد احتفل البريطانيون بالحدث على أنه انتصار عظيم:
“The British legation in Djedda perceived the move as a big success on the way towards progress”.
ولم تصدر السعودية نصاً قانونياً حول العبودية إلا في شهر تشرين الأول / أوكتوبر 1936. وننصح بقراءة ما يلي حول مسألة العبودية:
المقالات الممتازة لكل من: Mohamed en-Naji et Khalid Bensrhir:
La Grande-Bretagne et l’esclavage au Maroc au XIXe siècle. =

وتصف النطاق المخصص للنساء، فكلمة خصي أصلها يوناني eunokhos (وتعني حرفياً الذي يحرس eune مخدع النساء)[12]. وكان هؤلاء الخصيان مكلفين بمراقبة النساء الحبيسات «للإشراف على سلوكهن، والحؤول دون قيامهن بما يتنافى مع العفة أو الواجب الزوجي»، على حد قول أحد الخبراء في هذا المجال، شارل أنسييون، وهو كاهن بروتستانتي ولد في ميتز عام 1659، ثم أصبح مستشاراً في برلين للملك فريديريك الأول، وصاحب كتاب الخصيان الذي نشره تحت إسم مستعار، أوليكان، عام 1707.

إن هذه الدراسة الغريبة لشارل أنسييون الذي يتطرق فيها إلى وضع الخصي وقدرته الإنتشائية وحقه في الزواج

= Hespéris Tamuda, vol. XXIX. fasc. 2. 1991.

ويقدم الباحثان في هذه المقالات مراجع أساسية. . . وانظر كذلك كلمة عبد في موسوعة الإسلام والمراجع التالية:

La traite négrière, of Ibrahim Baba Kabé, Présence Africaine, Paris, 1987.

The Golden Trade of the Moors, by E.W. Bovill, Oxford University Press, 1970 (second édition).

Francois Renault. *La traite des noirs: Proche Orient médiéval VII-XIVe siècles.* Geuthner, Paris, 1989.

وأخيراً أنظر تقرير الأمم المتحدة Comité de l'esclavage et procés-verbaux du Conseil économique: Bulletin des Nations Unies (15 Avril 1950 et 15 Mai 1951).

(12) Introduction de Dominique Fernandez. introduction au *Traite des eunuques,* p. 7.

تفتح لنا نافذة فريدة حول النفس الأوروبية، وتشكل أحد المفاتيح لحل لغز الحريم الأوروبي. وفي الصفحات التالية، سوف نصوِّب عدسة الكاميرا على لوحة «المحظية مع العبد» لإنغر، التي تعتبر الشخصية الأساسية فيها خصياً يتميز بحضور مهيمن.

الفصل الثاني عشر

المحظية مع العبد

المسؤولية والحجاب

تتضمن هذه اللوحة لإنغر أحد مفاتيح لغز الحريم الأوروبي الذي باشرنا بسبر أغواره، وما أريد قوله هو أن صورة الخصي تمثل الرجل الأوروبي الذي فرض على نفسه رقابة ذاتية جنسية ليصبح فرداً مسؤولاً. كما أضيف أن المسؤولية الجنسية للرجل المسلم لم توضع قط في قفص الاتهام مباشرةً، وأن السجال حول الحجاب – الذي بدأ مع صدور كتاب قاسم أمين في منتصف القرن التاسع عشر، والذي لا يزال موضوع الساعة – هو في الواقع سجال حول هذه المسؤولية. وأود تحري الفرضية التالية: هل تكون المرأة سافرةً في الدول التي يعتبر فيها المواطنون أفراداً مسؤولين لأن الرجال يمارسون رقابة ذاتية جنسية؟ هل يكون الرجل غير مسؤول جنسياً وسياسياً في الدول التي يفرض حكامها على النساء التزام الحجاب؟[1] من هذا المنطلق، يصبح الخصي أحد رموز

(1) تعبر حالتي إيران والسعودية عن العلاقة بين الاستبداد السياسي وحجاب النساء. أنظر:

الفرد المسؤول مما يبرز أهمية التحرّي الدقيق للوحة إنغر[2].

وتأتي الشبقية الفريدة لهذه اللوحة المذكورة من العري الأنثوي الذي يحتل مقدمة اللوحة كلياً وبشكل جامح لا يمكن للناظر إليها التعامي عنه. فالمرأة نصف العارية المسترخية التي لا يزينها سوى عقدها وأساورها وغلالتها الرقيقة الشفافة، لا تنظر إلى أحد ولا سيما إلى الفنان، بل هي مستغرقة في ذاتها، غير مكترثة للحديقة الرائعة مع نافورة الماء. إنها حاضرة وكفى، وحضورها هذا يغير المناخ ويضفي عليه مسحة إيروتيكية لا تقاوم.

= F. Mernissi: *Palace fundamentalism and liberal democracy: Oil, arms and irrationality* in "Social futures, global visions", numero special de la revue "Development and social change" Vol. 27, avril 1996, pp. 251-265 Blackwell.

وانظر كذلك "Arab women's rights and the muslim state in the twenty first century: Reflections on Islam as Religion and State" in "Faith and freedom: women's human rights in the muslim world" Syracuse University Press, 1995, pp. 34 - 50.

(2) أذكِّرك، عزيزي القارىء، بأننا لا نسعى وراء الحقيقة في لعبة التحري هذه التي اضطلعنا بها. فالحقيقة، كما يعرف الجميع، يملكها الكهنة والأئمة. وكل ما نقوم به يقتصر على الاستمتاع بتحليل أنفسنا من خلال المرآة الغربية، والسعي لفهم أنفسنا بأنفسنا من خلال النظر في مرآة الآخر، دون قلق أو هستيريا. وبما أن الغربيين يهتمون بنا كثيراً ولا يكفون منذ قرون عديدة عن رسمنا، والتحدث باسمنا، فلنستفد على الأقل من نتاجهم الفني والأدبي، ونستعمله كمادة دراسية.

والخصي حاضر بدوره ولكنه لا ينظر إلى المرأة المضطجعة بل يشيح بنظره كما لو أنه يحاول عدم الاستسلام للإغواء. وتجدر الإشارة إلى أن خصي الغربيين كائن شديد الإيروتيكية خلافاً لموقفنا في الشرق الذي يعتبره كائناً فاقد الحياة وعديم الجنس[3]. وإنها لمفارقة تستحق الدراسة لأنني أعتقد بأن جوهر الفردية يكمن هنا، أي أن الإيروتيكية تتماشى مع انضباطية النفس عند الرجل الغربي. فالمرء يفرض على نفسه انضباطاً ذاتياً لمواجهة قوة الآخر الجنسية وتعطيلها. ويتسم الخصي الذي ابتدعته ريشة إنغر بمسحة إيروتيكية لأنه حاضر في هذا النطاق المشبع بالشبقية. فقد ذاعت شهرة الخصيان في أوروبا، وكان الأوروبيون يطلقون العنان لاستيهاماتهم حول سلطة هؤلاء الخصيان على النساء، كما يجري الاستيهام حالياً حول تألق نجوم موسيقى التكنو (وهم نجوم يكتنف الإبهام ميولهم الجنسية). وقد سعى كتاب أنسييون بالضبط إلى الإسهام في السجال الذي كان قائماً في عصره (القرن الثامن عشر) حول القدرة الإنتشائية للخصيان وحقهم في الزواج.

ويمكن اعتبار الخصي في لوحة إنغر رمزاً للذكر في

(3) أنظر حول هذا الموضوع Grosrichard. *Le Gardien des seuils*, p. 183 والجزء الثاني من كتاب Ancillon. *Le Droit des eunuques par rapport au mariage* "Traité des eunuques", p. 163.

مجتمع أوروبي تسود فيه سيرورة الحضارة Uber den prozess der zivilisation، كما يدعوها الفيلسوف الألماني نوربير الياس. وقد فرضت هذه السيرورة على الرجل الرقابة الذاتية والضبط الذاتي لغرائزه لا سيما الإيروتيكية منها: «عندما تجنح سيرورة الحضارة في إخضاع الغريزة الجنسية،كغيرها من الغرائز، إلى تنظيم صارم وتحوُل جذري، تُطرح المسألة من زاوية أخرى تتمثل في الضغط الذي يمارس على الإنسان الراشد من أجل «تخصيص» كل المظاهر الغرائزية لا سيما الجنسية منها، و«حجاب الصمت»[4]... ويستعمل نوربير الياس كلمة حجاب، ويضيف قائلاً: «والقيود التي يفرضها المجتمع على حرية التعبير لدى هذا الإنسان، واستهجان معظم المفردات المرتبطة بالحياة الغرائزية، رمز الضغوطات النفسية التي يرزح المرء تحت وطأتها، كل ما سبق يساعد على قيام «جدار من الصمت» حول المراهق يكون منيعاً بهذا القدر أو ذاك، مما يجعل من الصعب تخطي هذا الجدار عاجلاً أم آجلاً، أي بعبارة أخرى، إن التربية الجنسية لا تقوم فقط على ضرورة تلقين المراهق أو المراهقة معايير الراشدين القاضية بخنق الغرائز والتحكم

(4) Norbert Elias. *La civilisation des moeurs*. Collection Pluriel. Calmann-Levy, Paris, 1973, p. 304. Traduction française du tome I de *Uber den prozess der zivilisation*. 1ere édition 1939.

بها»[5]. والجدير بالذكر أن دراسة حديثة حول السلوك الجنسي لدى الطلاب في المغرب أظهرت اختلافاً هائلاً بين الجنسين حول العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج على سبيل المثال. ويرى واضعو الدراسة أن المجتمع، وبالرغم من سريان الشريعة والقوانين على الرجال والنساء على حدٍّ سواء، يجيز للرجل انتهاك القواعد ولا يشجب سلوكه بالشراسة نفسها حين يحصل على المتعة خارج إطار الزواج: «يكمن الاختلاف الأبرز بين الطلاب والطالبات حول ظروف ممارسة العلاقات الجنسية: ويعتقد 76،8٪ من الطالبات مقابل 41،3٪ من الطلاب أن الزواج هو الشرط الأساسي لإقامة علاقات جنسية»[6].

وبالتالي، ينظر الرجال الذين يفترض بهم أن يكونوا حماة الأخلاق الإسلامية على أن الجنس «أمر طبيعي» خارج إطار الزواج.

لقد حمل النضال من أجل حرية الفرد على الصعيد السياسي المجتمعات الغربية على مواجهة مسألة الحرية – المسؤولية الجنسية. فاستبدال الحكم الاستبدادي الذي

---

(5) Norbert Elias. *La civilisation des moeurs*. Collection Pluriel. Calmann-Levy, Paris, 1973, p. 304. Traduction française du tome I de *Uber den prozess der zivilisation*. 1ere édition 1939.

(6) Rahma Bourquia, Mokhtar El Harras, Driss Bensaid: Jeunesse estudiantine marocaine: Valeurs et stratégies " Publication de la Faculte de Lettres. Université Mohamed V. Rabat, 1995. p. 95.

تجسده الكنيسة أو الدولة اللذين ينظمان السلوكيات من الخارج، بأفراد مسؤولين يديرون شؤونهم، أرغم الغربيين على الانضباط الجنسي أيضاً، ورؤية الجسد العاري للمرأة التي تعتبر مواطنة وتالياً مساوية لهم دون الانقضاض عليها. لقد اختار الغربيون تطوير حس المسؤولية لدى الفرد، وليس التحكم الذاتي سوى آلية داخلية ومسألة خاصة وحدود يفرضها الرجل على نفسه. وقد كان الزواج الأحادي الشرط الضروري كما يقول نوربير الياس: «من المؤكد أن تنظيم إقامة العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة قد شهد تحولاً جذرياً على مر القرون. فقد دافعت الكنيسة دفاعاً شرساً منذ البداية عن الزواج الأحادي الذي لم يصبح مؤسسة اجتماعية إلزامية للجنسين سوى في مرحلة متأخرة، لأنها تفترض رقابة ذاتية صارمة على الحياة الغرائزية؛ وبفضل هذه الرقابة، يمكن أن يحرِّم المجتمع العلاقات الجنسية التي يقيمها الرجل والمرأة على حد سواء خارج الزواج، أو على الأقل يضعها في نطاق السرية التامة»[7]. فهل يكون حضور الخصي في الحريم الأوروبي، كما ترمز إليه لوحة إنغر، تجسيداً لهذه الرجولة التي تتحكم طوعاً بغريزتها الجنسية ذاتياً؟

(7) Norbert Elias. *La Civilisation des moeurs*. p. 306.

قد تحملنا هذه الملاحظة على الابتسام في جهتنا من المتوسط، على غرار الفضائح السياسية التي تضحكنا في الولايات المتحدة حين يتعرض أحد أعضاء مجلس الشيوخ أو الرئيس الأميركي (كلينتون المسكين) للهجوم بسبب مغامرة جنسية. ولكنني أرى أنه قد آن الأوان للكف عن الهزر والاستهزاء من الغرب «المعقَّد». فقد حان الوقت «لنتعقَّد» بدورنا. وقد يكون ذلك الشرط الضروري نحو الفردية واحترام الآخر، ذلك لأن تحرر النساء كما يذكر نوربير الياس، يفترض الرقابة الذاتية من جانب الرجال: «يتسم الزواج في مجتمع الملكية المطلقة الذي ساد منذ القرن الخامس عشر حتى القرن السابع عشر بالإلغاء التام، بحكم بنى هذا المجتمع، لسيطرة الرجل على المرأة. وأصبحت القوة الاجتماعية لهذا الزواج تساوي تقريباً قوة الرجل، ورأيه الاجتماعي تحدده المرأة والرجل على حدً سواء...»[8].

لقد اضطر الأوروبيون، خلال معركتهم ضد الملكية المطلقة، إلى الاعتراف بمبدأ المساواة للجميع، أي القبول بإعادة توزيع السلطات داخل المجتمع، مما يعني السيطرة على أمرين: العنف والغريزة الجنسية. وكان يجب الفصل بينهما، أو على الأقل، العمل على بلوغ

(8) Norbert Elias. *La Civilisation des moeurs*. p. 307.

هذا الهدف: فلا تعود المرأة بحاجة لوضع الحجاب من أجل حماية نفسها، ويمكنها أن تتنزه عارية على شاطىء البحر، لأن الرجل سوف يضبط نفسه ويتصرف كالخصي في لوحة إنغر: **شوف واحشم** (أي أنظر وكن محتشماً). وتجدر الإشارة إلى أن هذه التحولات استغرقت خمسة قرون، وكانت تدريجية. ونحن نعرف بأن الكثير من الرجال في الولايات المتحدة يجدون صعوبة حتى اليوم في تقبل المساواة الجنسية، وقضايا الاعتداءات والتحرشات الجنسية sexual harassement التي تحفل بها المحاكم الأميركية تثبت أن الأمَّة يجب أن تحرص على تطوير حس المسؤولية لدى المواطنين في مجال الخطط التربوية والقانونية.

ويجب تفسير السجال القائم حول الحجاب في المجتمع الإسلامي، في اعتقادي، على أنه سجال حول استقلالية المرأة وضرورة تأقلم الرجل معها وانضباطه أمام عورة المرأة، ذلك أن الحجاب كان يمثل الآلية التي تنظم الغريزة الجنسية بصورة سلفية، أي من خلال الفصل المكاني. وما أن تصدعت جدران الحريم، بصورة رمزية أولاً ثم رسمياً عام 1909، مع إلغاء آخر حريم امبراطوري، وجد هؤلاء السادة أنفسهم دون حماية. ويحل السجال حول الحجاب في مجتمعاتنا، لا سيما بعد ظهور الإمام الخميني عام 1979، محل السجال حول

المسؤولية الجنسية للرجل. والجدير بالذكر أن الإمام الخميني نفسه كان نتاج النضال ضد الاستبداد، وهو نتاج عصري، وتجسيد للتزاوج الثقافي الضروري بين الدين والحقوق المدنية، أي الشرط الضروري لتحقيق الديمقراطية.

وقد فرض الإمام الخميني الحجاب على النساء الموظفات في القطاع العام[9]. ولم يتوجه إلى النساء الأميات اللواتي لم يكنَّ يعملن مقابل أجر. ولا يجب الخلط بين الحجاب الذي فرضه الخميني، وحريم هارون الرشيد أو السلطان عبد الحميد. فقد سعى الخميني لحل مشكلة راهنة: كيف يجب أن يواجه الرجل المسلم العصري استقلالية زميلته في العمل، هذه الزميلة المتعلمة والتي تتقاضى راتباً؟ ولا يخلو قرار الرئيس الإيراني بفرض الحجاب من العبرة، ليس لأنه يقدم الحل المناسب، بل لأنه يطرح السؤال الصحيح، وهذا السؤال هو التالي: كيف تدار المساواة بين الرجل والمرأة؟ وما السبيل لإدراج استقلالية المرأة كعنصر أساسي في الحياة اليومية للرجل الإيراني العصري؟ والمهم أن قائد الثورة في أحد أكثر المجتمعات الإسلامية تطوراً ورقياً، إذ فرض

(9) Farah Izari. *Le Mouvement de femmes en Iran aprés la révolution*, traduit du persan en arabe par Hala Chukr Allah, paru dans "Al Mar'a Al Jadida" cahier numero 2, juillet 1986. Le Caire. p. 25.

الحجاب بمرسوم، دق ناقوس الخطر داعياً إلى ضرورة تغيير السلوكيات، واعترف كذلك بأن التغيير قد حصل: فالمرأة كانت قد خرجت أصلاً إلى الشوارع والمكاتب. ويعتبر السجال حول الحجاب سجالاً حول مسؤولية الفرد، وحول ضرورة قيام اقتصاد جنسي جديد: فكل مجتمع «يتحدَّث» عن هواجسه، و«يعبِّر» عن مشاكله ونزاعاته بالمواد الثقافية المتوافرة لديه والتي يمثلها الحجاب في مجتمعاتنا على أبواب القرن الحادي والعشرين، والخصي في لوحة إنغر. ويرى نوربير الياس أن تحرر النساء يعني الرقابة الذاتية لدى الرجال: «... إن تعزيز الوضع الاجتماعي للمرأة - إذا ما استعملنا تعبيراً فضفاضاً بعض الشيء - والتساهل في القيود الغرائزية المفروضة على النساء، وتشديد هذه القيود على الرجال، قد أدى إلى تضييق الرقابة الذاتية لدى الرجل والمرأة على حد سواء في علاقاتهما المتبادلة»[10]. والجدير بالذكر أن إنغر، وإن كان يرسم نساء عاريات في لوحاته، فقد كانت هؤلاء النساء أجنبيات إلزامياً، تركيات، وليس مواطنات فرنسيات، ذلك أن الرجال الأوروبيين لم يكونوا مهيئين قبل حلول القرن العشرين لرؤية امرأة عارية على شاطىء البحر دون الإقدام على عمل متطرف، فإما يفقدون وعيهم

(10) Norbert Elias, op. cit. p. 308

من فرط المتعة، أو ينقضون على المرأة، حسب التعبير الفرنسي المعروف. ففي الزمن الذي عاش فيه إنغر، لم يكن الرجال الأوروبيون قد نضجوا بعد لمواجهة امرأة أوروبية عارية. وكان إنغر نفسه wald darhum، أو (إبن عيلة) كما يقال باللغة العربية الدارجة، غير قادر على الزواج ثانية بمفرده. فعلى سبيل المثال، باءت مساعيه للخطوبة بالفشل مرتين، فلجأ إلى جلاسة (كما في رواية «ليلة القدر» للطاهر بن جلون) لترتيب زيجتيه اللاحقتين، أي وسيطة دبرت له زواجه.

الفصل الثالث عشر

خطوبة المواطن جان-أوغست-دومينيك إنغر

هل كان من الضروري الحصول على تربية دينية والانتساب إلى مدارس الرهبان المسيحيين، والتصرف بشكل أخرق مع النساء في فترة الخطوبة، ثم الوقوع في سجن زيجتين أحاديتين من أجل رسم نساء يتميزن بشبقية ساحرة تتحدى الزمن؟ لقد قدم إنغر للفن الغربي بعضاً من أكثر نسائه شهوانيةً. ومن بين أشهر المحظيات اللواتي رسمهن، بالأمس واليوم على حدٍّ سواء، واللواتي ظهرن آلاف المرات على أغلفة الكتب وفي المجلات، نذكر «محظية فالبينسون»، اللوحة التي أنجزها الفنان عام 1808 في سن الثامنة والعشرين، و «المحظية الكبرى» التي أكملها في سن الرابعة والثلاثين عام 1814، وأخيراً «نساء الحمَّام التركي» التي رسمها في سن الثانية والثمانين. ولا تزال هذه اللوحات تستجيب لحاجة دفينة في ذائقة العصر، في حين لم تحظ بمثل هذا الإجماع اللوحة التي رسم فيها إنغر زوجته الثانية، دلفين راميل، الفرنسية

الأصل والبرجوازية علاوة على ذلك[1]. وتكاد تكون كل محظيات إنغر نساء مجهولات شهيرات لا وجه لهن، يعرضن للناظر إليهن ظهرهن العاري، جامدات في وضع غير مكترث، منتشيات في حميمية بالكاد تزعجها النظرة التي فاجأتهن. وبالتالي، يسعنا القول إن إنغر كان يملك حياتين، حياة لا ترقى إليها الشكوك لمواطن متزوج زواجاً أحادياً عاقلاً وفق الأصول، وحياة سلطان عثماني جامح الأهواء، يبحر مغامراً على ضفاف شبقية متفجرة.

ألأنَّ إنغر رسم زوجته محتشمةً وتنظر نظرة مباشرة، لم تلفت الانتباه ولا أثارت إيحاءات إيروتيكية؟ أم لأن الزواج والإيروتيكية ينتميان، بالنسبة إلى هذا الفنان، إلى عالمين مختلفين؟ هل يعتبر أن مواطنة فرنسية كزوجته، أو كجميع النساء اللواتي رسمهن في لوحاته، وأظهرهن محتشمات دائماً، قد فقدن صفتهن الأساسية التي تستثير النشوة، أي الاستسلام الخانع الذي تتميز به المحظية؟

كان إنغر يبلغ التاسعة من العمر في 1789، ذلك العام المشهود لإعلان حقوق الإنسان والمواطن، والسنة التي سعى فيها الشعب الفرنسي لفرض خياره من أجل مجتمع يقوم على المساواة بين الناس. وكان إنغر إبناً صالحاً للثورة الفرنسية، وتجسّد حياته بصورة نموذجية تكافؤ

(1) Tournois "Ingres". op.cit. *Catalogues des oeuvres*. n 165, p. 116.

الفرص وإلغاء الامتيازات الارستقراطية: فقد ولد في بيئة متواضعة ولكنه تسلق بسهولة السلم الاجتماعي، وانتزعت موهبته الفذة الاحترام والتقدير والشهرة. وقد أبصر إنغر النور في مونتوبان (مقاطعة تارن وغارون) في عائلة متواضعة: «كان والده جان-ماري-جوزف قد استقر في مونتوبان وعمل فيها نحاتاً مزخرفاً، وسرعان ما أصبح الفنان القادر على إنجاز كل الأعمال في المدينة... وفي عام 1777، تزوّج آن موليه، إبنة صانع شعر مستعار في ديوان جباية الضرائب، وأنجب منها خمسة أطفال كان جان- دومينيك أكبرهم سناً»[2]. ويشير بيير أنغران، كاتب سيرة الفنان، ومؤلف كتاب **إنغر وعصره**[3]، أن إنغر قد ترعرع «وسط مناخ تشوبه النزاعات الدينية»، وكون المرء الإبن البكر لعائلة كبيرة ليس امتيازاً على الدوام، وعندما يكون الوالد «معيل العائلة»، فناناً، تتعقد الأمور: «كانت أسرة إنغر تتنقل بين المساكن المتواضعة، وكان الأب نحّاتاً مزخرفاً وموسيقياً، يتمتع بطباع خفيفة ومرهفة، والأم تتميز بعزمها وتعقلها وحرصها على الفضائل المنزلية...»[4].

(2) Daniel Ternois (Introduction) et Ettore Camesasca (Documentation) *Ingres*, traduit de l'italien par Simone Darses. Flammarion. Paris 1971, 1984, p. 83.

(3) Pierre Angrand. *Monsieur Ingres et son epoque*. Bibliothèque des Arts, Lausanne-Paris 1967, p. 9.

(4) Pierre Angrand dans son *Monsieur Ingres et son époque*, p. 12

لم تتضاءل أهمية الدين بالرغم من إعلان حقوق الإنسان والمواطن، وإقصاء رجال الدين عن الشأن السياسي، بل على العكس، سوف يترعرع إنغر منذ نعومة أظفاره في الثقافة المسيحية بدءاً من طقس العمادة: «لقد عُمِّد في 14 أيلول في كنيسة سان- جاك»[5]، وتلقى بالطبع تربية مسيحية: «لقد وضع الطفل بادىء الأمر لدى مدارس الرهبان. وكان هؤلاء الكهنة قلما ينصرفون للتدريس، أو يدرِّسون بشكل سيء بسبب الأحداث التي جعلتهم يضطربون ويسعون لتأقلم صعب مع الأوضاع الجديدة. وكانت المعارف التي اكتسبها الطفل شحيحةً تشوبها الثغرات والنواقص حتى في المبادىء الأساسية، وسوف يندم إنغر على ذلك كثيراً، ولكنه بالمقابل، كان يتمتع بمواهب مبكرة في منزل عائلته، ويجيد العزف على الكمان والرسم»[6]. وقد أرسل إلى أكاديمية تولوز في الحادية عشرة، ثم قصد باريس في السابعة عشرة للدراسة في مرسم الفنان الشهير دافيد... وهناك، اكتشف أن رفاقه في الصف «يتمتعون بالرخاء والثقافة واللباقة التي يتميز بها الشبان الباريسيون، أي كل ما كان يفتقر إليه

---

(5) Daniel Ternois (Introduction) et Ettore Camesasca (Documentation) *Ingres*, traduit de l'italien par Simone Darses. Flammarion. Paris 1971, 1984, p. 83.

(6) Pierre Angrand. *Monsieur Ingres*, p. 12.

إنغر»[7]. ويرى نورمان شلينوف، مؤلف كتاب **شباب إنغر** أن الفنان كان يشعر بالخجل من منبته المتواضع[8].

ويضيف شلينوف أن «إنغر لم يكن يتحدث قط عن سنوات طفولته، ولا يشعر بالحاجة للتطرق إليها بالرغم من مشقتها وصعوبتها»[9]. وكان يتحاشى الحديث عن تلك الفترة التي عمل فيها في جلي الأطباق في حانة عمه، أو كان يرسم فيها الزبائن ويعزف في فرق موسيقية في المراقص الشعبية[10]. وسوف ينتقم إنغر بصورة مذهلة من التمييز الطبقي، مشاركاً في المسابقات، ومتصدراً المراكز الأولى، وحائزاً الأوسمة. وسوف ينال في سن الحادية والعشرين أول جائزة كبرى في روما، مما ضمن له، إلى جانب الاعتراف بموهبته، الإعفاء من الخدمة العسكرية، وهذا لم يكن بالشيء القليل لأن فرنسا كانت تخوض الحروب في تلك الفترة (ونابوليون يحوم في الجوار وقتئذ![11]). وفي عام 1805، كلفته مدينة لياج مع فنان آخر يدعى غروز Greuze برسم نابوليون، والتقى الفنانان بالقنصل الأول الذي توضع لهما في جلسة

(7) Pierre Angrand. *Monsieur Ingres et son époque*, p. 14.

(8) Norman Schlenoff: *La jeunesse d'Ingres*. Revue de la Mediterranée. 1955, pp. 500-516.

(9) Norman Schlenoff: *La jeunesse d'Ingres*. op.cit.

(10) Norman Schlenoff: *La jeunesse d'Ingres*. cite par Pierre Angrand, *Monsieur Ingres et son époque*, note numéro un, p. 13.

(11) Pierre Angrand. *Monsieur Ingres*. p. 15.

قصيرة[12]. وفي عام 1834، عُيِّن إنغر مديراً لأكاديمية فرنسا في روما، وحين عاد إلى باريس بعد انتهاء مهمته عام 1841، لقي استقبالاً حافلاً: «نظَّم ماركيز باستوريه على شرفه مأدبة دعا إليها 426 شخصاً، أعقبها حفل موسيقي بقيادة برليوز. ودعاه الملك لويس-فيليب إلى قصر فرساي واستضافه في منزله بضاحية نويي Neuilly. وتتالت طلبيات اللوحات الشخصية»[13]. وفي عام 1850، عُيِّن رئيساً لمعهد الفنون الجميلة، ثم في عام 1855، «تسلم من يد الامبراطور صليب الضابط الأكبر لجوقة الشرف. وأخيراً، عُيِّن عضواً في مجلس الشيوخ عام 1862 وقدم له 215 فناناً فرنسياً وساماً ذهبياً»[14].

ويعتبر إنغر من هؤلاء الأشخاص المباركين الذين أضحوا أنبياء في بلادهم أثناء حياتهم، وهو وضع نادر الحدوث، ومريح على وجه الخصوص. ولكن هذا الفنان، وإن بلغ في حياته المهنية ذروة النجاح والشهرة دون أيما تردد أو هفوة، لم يوفق في حياته العاطفية. وربما أمكن تبرير حنانه للمحظيات الشرقيات وإخلاصه لهؤلاء النساء اللواتي لا يستطعن أن يرفضن طلباً لسيدهن لأنهن إماء، بسبب «طبعه الأخرق» في

(12) Daniel Ternois et Ettore Camesasca. *Ingres*. p. 83.

(13) Daniel Ternois et Ettore Camesasca. *Ingres*. p. 85.

(14) Daniel Ternois et Ettore Camesasca. (Documentation) *Ingres*. p. 85.

صباه، وعدم قدرته على التواصل مع المرأة المعشوقة والاحتفاظ بها.

والجدير بالذكر أن المرأتين اللتين رغب الاقتران بهما لم تقاسماه حياته. ولم تكن خطيبته الأولى «محظية» خاضعة، بل تدعى جولي فورستييه، وهي «رسامة وموسيقية»، قام إنغر الذي كان في السادسة والعشرين بتقديم بعض لوحاته بالطبع إلى والدها[15]. غير أنه، وبعد مرور سنة، خلال صيف 1807، فسخ خطوبته مع جولي فورستييه التي سارعت إلى إرجاع اللوحات التي أهداها لعائلتها[16]. وفي هذه السنة، كما لو أراد إنغر التعويض عن فشله العاطفي، قام برسم لوحة «المستحمة النصفية» التي تمثل مشهداً من الخلف لامرأة عارية جالسة وقد شبكت ذراعيها حول نهديها المتواريين، واعتمرت عمامة حريرية رائعة لم تحكم وضعها على رأسها، من تلك العمائم التي تميز المحظيات، وهو تفصيل سوف يكرره لاحقاً، لا سيما في لوحته الشهيرة «مستحمة فالبينسون» نسبة إلى الزبون الذي اشتراها[17].

وبعد الفشل العاطفي الأول، سوف يتريث إنغر خمسة أعوام قبل أن يخطب ثانية. وكان في الثانية والثلاثين حين «كتب

(15) Daniel Ternois et Ettore Camesasca. (Documentation) *Ingres*. p. 90.

(16) Tournois, idem.

(17) Tournois, p. 40.

لأبويه في 11 كانون الأول / ديسمبر 1812 يطلب إذنهما لإعلان خطوبته على لورا زوغا، إبنة عالم آثار دانمركي وصديق لتورفالدسين»[18]. كانت هذه الخطوبة أقصر من سابقتها، وقد فسخت بسرعة نسبياً.

وقد قرّر إنغر عام 1813 اللجوء إلى طريقة أقل رومنسية والزواج من امرأة لا يعرفها. فطلب المساعدة من أصدقائه: «وبواسطة أصدقائه من عائلة لوريال، راح يراسل إحدى نسيباتهم التي تدعى مادلين شابيل وتقطن في بلدة غيرى Guéret. وقد تمت الخطوبة من خلال المراسلات. وجاءت مادلين للقاء زوجها العتيد قرب روما، على طريق فرنسا، قرب «قبر نيرون»[19]. وهكذا، تزوج إنغر، عاشق النساء الجميلات المثيرات، امرأة بالكاد يعرفها. ومن الطبيعي أن يشهد هذا الزواج بين رجل وامرأة بالكاد يعرف أحدهما الآخر محنة قاسية على حد قول أنغران[20]. وبما أن الزوجين لم يكونا شابين فعلاً (كان إنغر في الثالثة والثلاثين، ومادلين في الواحدة والثلاثين)، فقد انتصرت الحكمة وحل الانسجام. ومع مرور السنين، توصل الإثنان إلى زواج سعيد انتهى بوفاة مادلين عام 1849. «لقد توفيت زوجته مادلين، تلك التي كانت لأكثر

(18) Tournois, p. 44.

(19) Pierre Angrand. *Monsieur Ingres et son époque*, p. 25.

(20) Pierre Angrand. *Monsieur Ingres et son époque*, pp. 25, 26.

من خمسة وثلاثين عاماً، كاتمة أسراره وملاذه الدائم»[21].

غير أن إنغر الذي كان في التاسعة والستين لدى ترمله الذي أصابه في الصميم، سوف يتصرف كرجل فاسي عجوز. ولا أدري إذا كنتم تعرفون كيف يتصرف الرجال في مدينة فاس، مسقط رأسي، حيث النفاق يعتبر فناً: فحين تموت زوجتهم التي عشقوها وأمضوا معها ثلاثين عاماً من الحب والوئام، يذرفون الدموع في الأيام الثلاثة الأولى أمام المعزين في الجنازة (والجنازة طقس من طقوس المأتم طويل، ولا سيما مكلف، وصاخب) وما أن ينتهي المأتم حتى يرددون حولهم أنهم لا يطيقون الوحدة، ولا يذوقون طعم النوم ليلاً، الخ.. ، ويجندون أصدقاءهم ليجدوا لهم زوجة ثانية قبل حلول فصل الشتاء. وهذا ما فعل إنغر: «كان يأسه من وحدته عنيفاً بقدر ما كان عابراً، فاضطر للزواج من جديد. وفي 15 نيسان / أبريل عام 1852، اقترن بدلفين راميل، وهي قريبة لعائلة ماركوت. وقد حرص على إعلامها بأنه في الثانية والسبعين قبل عقد القران. وكانت دلفين التي تبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عاماً، تنتمي إلى البرجوازية الثرية وتعيش مع والدها الذي يعمل أميناً للرهون في منطقة فرساي»[22].

(21) Pierre Angrand. *Monsieur Ingres et son époque*, p. 227.

(22) Pierre Angrand. *Monsieur Ingres et son époque*, idem.

وقد جلب له هذا الزواج الثاني أفراحاً هادئة عبَّر عنها بنفسه عام 1854 كما يلي: «لا أرى أحداً أو ألتقي نادراً ببعض الأصدقاء الذين يتسامحون ويعجبون بحياتي الراهنة. وتستطيب زوجتي الرائعة هذا الأسلوب في العيش، وتنسيني وحدتي، وتزين كل أمسياتي تقريباً بمقطوعتين لهايدن الإلهي تجيد عزفهما بعاطفة جياشة، وأقوم بمرافقتها في بعض الأحيان»[23]. ومع ذلك، وفي هذه الحياة الزوجية الرتيبة، بدأ إنغر يرسم عام 1859[24]، أكثر لوحاته «إثارةً»، وأكثرها «شبقيةً» على نحو شيطاني، وهي لوحة «الحمَّام التركي» التي تضم لفيفاً من النساء العاريات. ويرى إدوارد لوسي ـ سميث أن الإكثار من النساء العاريات يشكل إحدى التقنيات التي تعزز الإيحاءات الإيروتيكية: «لقد قدم لنا إنغر نموذجاً مذهلاً في لوحة «الحمَّام التركي»، يمثل نشيداً يمجد جسد المرأة الحاضر أبداً. وتبدو الإيروتيكية التي تبرز في اللوحة معقَّدة بشكل خاص بسبب تنوع العناصر التي تتداخل فيها. وتذكر اللوحة أولاً بسوق النخاسة، بقطيع النساء الذي ينتظر أن يُقدَّم لمتعة الذكر؛ وثانياً، يبرز فيها التلصّص، إذ يفترض أن يكون المشهد محرَّماً على

(23) Lettre a Pauline Guibert, datée du 6 septembre 1854, citée dans Angrand, p. 247.

(24) Daniel Ternois et Ettore Camesasca. *Ingres*. op.cit., p. 117.

النظرات الفضولية؛ وثالثاً، توحي بعض الأوضاع بالشذوذ الجنسي الكامن، وتشهد على ذلك الطريقة التي تداعب فيها المرأة على الجهة اليمنى من اللوحة نهد رفيقتها[25].

والجدير بالذكر أن زوجة الزبون الأول الذي اقتنى لوحة «الحمّام التركي»، وهو الأمير نابوليون، لم تقبل أن تشاركها منزلها تلك النسوة في أوضاعهن الشهوانية، فأجبرت زوجها على التخلص من اللوحة: «ومن المؤكد أن الأمير نابوليون، اعتباراً من شهر نيسان / أبريل 1860، ونزولاً عند رغبة زوجته الأميرة كلوتيلد التي صدمت لهذه الوفرة من النساء العاريات، أعاد اللوحة إلى إنغر الذي قدم له بالمقابل لوحة تمثل الأمير»[26]. وأدخل الفنان تعديلات على اللوحة لكي تتقبل السيدات «صدمة الحمّام»، فحوّلها إلى لوحة دائرية. ولهذا الغرض، أنقص حجمها بمقدار شريط عامودي، وكبّرها بإضافة شريط آخر في الجهة اليسرى. وكان هذا التعديل مهماً لأن جزءاً كبيراً من المرأة العارية في مقدمة اللوحة، إلى الجهة اليمنى، اختفى، وتغير وضع جارتها. ثم تلت ذلك الطاولة الموضوعة في مقدمة اللوحة، والمستحمة الجالسة على طرف الحوض، وكل الوجوه الأخرى التي تعلوها

---

(25) Edward Lucie-Smith. op.cit. p. 180.

(26) Daniel Ternois et Camesasca. *Ingres*. op.cit. p. 118.

من الخلف، وأخيراً حذف إنغر الستارة...»[27].
واحزروا من اشترى اللوحة المعدَّلة التي كان كل الأزواج يترددون في اقتنائها؟ رجل تركي. «ففي عام 1864، كانت اللوحة لا تزال في مرسم إنغر. وبعيد ذلك، اشتراها بمبلغ قدره 20 ألف فرنك خليل بك، سفير تركيا في باريس». وبعد أربعة أعوام، عاد فباعها لشخص فرنسي، ولم تصبح اللوحة ملكاً لمتحف اللوفر إلا في عام 1911[28].

أما عن مسألة الشذوذ الجنسي والمرأتين اللتين تداعب إحداهما نهد الأخرى، فمن المعروف أن إنغر استوحى ذلك من رسائل سيدة انكليزية تدعى ليدي مونتاغيو، زوجة سفير انكلترة في تركيا، حالفها الحظ أثناء إقامتها في هذا البلد، فدخلت «حمَّاماً»، ووصفت تجربتها بالتفصيل، مشددةً على أن النساء كن عاريات، ولكن أجواء الحمام لم تكن إيروتيكية قط كما قد يعتقد الغربيون[29]. وتقول لين ثورنتون: «بينما كان إنغر يستعد

---

(27) Daniel Ternois et Camesasca. *Ingres*. op.cit. p. 118.

(28) Daniel Ternois et Camesasca. *Ingres*. op.cit. p. 118.

(29) “Il faut tenir compte aussi des lettres de Lady Montague, femme de l’ambassadeur de Grande-Bretagne en Turquie, donnees habituellement comme source litteraire du *Bain Turc*, mais un passage de ces lettres, recopié par Ingres dans le cahier IX où il est question de baigneuses orientales coiffées par des esclaves...” Ternois et Camesasca. p. 106.

لرسم لوحته، قرأ ونسخ الترجمة الفرنسية لرسائل الليدي ماري مونتاغيو. وبالرغم من أن هذه السيدة تشدد على عدم وجود أي تصرف مناف للحشمة واللياقات بين المستحمات، يبدو أن الفنان قد تغاضى عن هذه الملاحظة»[30]. ومن المهم إعادة قراءة الفقرات التي تصف فيها الليدي مونتاغيو زيارتها إلى «الحمّام التركي»: «كانت الأرائك الأمامية مغطاة بطنافس وبسط ثمينة جلست عليها السيدات؛ وعلى الطنافس والبسط الخلفية، قعدت إماؤهن، وبدون تمايز في الزي يشير إلى مقامهن، لأنهن كن جميعاً كما خلقهن الله، أي عاريات تماماً بصريح العبارة، لا يسترن شيئاً من جسدهن أو عيوبهن؛ ولكن لا واحدة منهن كانت تبتسم ابتسامة فاسقة، أو تقوم بحركة فاحشة»[31].

ويعزى نجاح لوحة المحظية إلى أنها تمثل في الفن الغربي الذكوري نقيض المواطنة، ونقيض الاستقلال، وحياة النساء في الأسر: «المحظية كلها خضوع، تنتظر

(30) Lynne Thornton. op.cit. pp. 72-74.

(31) Traduction française de Lynne Thornton dans *Les femmes dans la peinture orientaliste*, p. 72. Aussi directement dans la traduction de Lady Mary Montague *L'Islam au peril des femmes: Une anglaise en Turquie au VIIIe siècle* "introduction et traduction d'Anne-Marie Moulin et Pierre Chuvin. La Decouverte, Paris, 1991, p. 133.

الرجل الذي سوف يمتلكها، وكل تفصيل من تفاصيل وضعها يدل على أنها لن تقاومه أياً كان. جسدها ليس ملكاً لها، ووجهها مجهول الهوية، يتميز بجمال رقيق، خال من التعبير»[32]. وتجسد المحظية في هذا الوصف، تلك الغانية الشرقية التي تخيلها الرجل الغربي، الاستسلام بعينه.

ولكن هذه المرأة، ويا للعجب، لم تكن معروفة في الشرق لأن نساء الحريم لم يكنَّ قط مستسلمات استناداً إلى التاريخ الإسلامي.

(32) Edward Lucie-Smith, *La Sexualité dans l'art occidental*. op. cit. p. 135.

الفصل الرابع عشر

المحظية المستسلمة غير معروفة في التاريخ الإسلامي

لا تشبه قط المحظية المستسلمة التي صوَّرها إنغر وماتيس في لوحاتهما صورة نساء الحريم اللواتي وصفهن المؤرخون المسلمون. فالتاريخ الإسلامي كان، إلى فترة حديثة العهد، (فقد دخلت النساء هذا المضمار في أواخر القرن التاسع عشر)، نتاج الرجال فحسب، والمرأة التي تبرز في كتاباتهم مخطِّطة قوية الشكيمة تسعى لانتزاع السلطة من الأسياد، وتبلغ في فن المكيدة مبلغاً لا تزال تعجب له النساء العصريات اللواتي يواجهن صعوبة في اقتحام حصون السلطة السياسية. وفي هذا الفصل الذي يختم تحرينا لهذا «الحريم الأوروبي» الذي ابتكره في اللوحات الفنية رسامون على غرار إنغر وماتيس، يجب أن نحل لغزاً أخيراً، أن نثبت بأن المحظية المستسلمة التي ابتدعها الغربيون لا تتلاءم مطلقاً مع تصور المسلمين الذين كتبوا التاريخ ووصفوها على أنها امرأة متعطشة للسلطة.

لقد كرَّس المؤرخون المسلمون، منذ القرون الأولى لظهور الإسلام، مكانة بارزة للنساء، بل ومجلدات كاملة. وبما أن التأريخ كان يقتصر على سيرة الطبقات الحاكمة، فقد فتحت لنا هذه الدراسات التاريخية نوافذ فريدة حول حميمية حريم الخلفاء: الخلفاء والسلاطين والوزراء والقادة والتجار الأثرياء. والنساء اللواتي يصفهن المؤرخون المسلمون أمثال إبن سعد والمسعودي نساء نشيطات، منبهرات بكل أشكال السلطة، لا يفوِّتنَّ فرصة سانحة لانتزاع السلطة من الرجال الذين يخضعن لهم[1].

لا يعتبر الاسترقاق والأسر في الحريم مرادفاً للاسترخاء والاستسلام كما تدل قصة صفية، المحظية الإيطالية المعروفة باسم بافو Baffo التي كانت تتجسس في القرن السادس عشر على البحرية العثمانية لحساب البندقية، ما أن تفارق أحضان سيدها، السلطان مراد. «لقد وقعت صفية في الأسر، في سن مبكرة جداً، على يد قراصنة أتراك، واستطاعت، بفضل حسنها وذكائها، أن

(1) إبن سعد، «الطبقات الكبرى»، دار الفكر، 1985 (المجلد 8 مخصص للنساء. وقد عاش إبن سعد في القرن التاسع، وتوفي في عام 230 هجري).
أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، «المنتخب من كتاب الذيل المذيّل من تاريخ الصحابة والتابعين»، يقع في آخر المجلد 13 من «تاريخ الملوك والأمم»، دار الفكر، 1979. وقد توفي الطبري في عام 310 هجري (القرن التاسع).

تسلب فؤاد السلطان مراد، وتنسيه كل النساء الأخريات. . . » حسب ما يورد بنزر الذي أصدر عام 1936 كتاباً عن الحريم العثماني. «كانت صفية تراسل سراً الملكة كاترين دي ميديتشي لمنع الأتراك من مهاجمة البندقية؛ وتقود تحركات الأساطيل والجيوش العثمانية، بينما كان السلطان مراد منغمساً في ملذات الحريم. وقد تبادلت صفية الرسائل السرية مع سفير البندقية بواسطة امرأة يهودية تدعى لا كياريتزا La Chiarezza كانت تزود قصر السلطان بالحلي وغير ذلك من المجوهرات. . . وكانت صفية، بغض النظر عن تصميمها على منع تركيا من شن هجوم على البندقية، تحلم بالتضحية لتصبح أم السلطان وتجعل إبنها يتبوأ عرش السلطنة»[2]. وبالتالي،

(2) "... A beautiful venitian woman of the noble house of Baffo. She had been captured by a Turkish corsair in her early youth, and by her beauty and cleverness soon won the heart of Murad to the exclusion of all other women... She was in secret correspondence with Catherine de Medicis to prevent Turkey from attacking Venice. She was who directed the movements of the Ottoman fleets and armies, while Murad was still wallowing in the delights of the harem. She also corresponded with the Venetian ambassador by means of a jewish named Chiarezza, who used to sell jewels and other similar articles to the Seraglio. A part from the determination to keep Turkey from having a war with ment of which everything would be sacrificed, and that was to place her son on the throne, and thereby herself become the Sultan Valide". N.M. Penzer "The Harem: An account of the institution as it existed in the palace =

نرى أن المحظية الجميلة المسترخية والغبية التي رسمها كل من إنغر وماتيس لا تشبه قط المحظية التي تتراءى في الشهادات، حتى شهادات المؤرخين الأوروبيين على غرار بنزر الذي خصّص صفحات كثيرة لمكائد النساء ورغبتهن الجامحة بانتزاع السلطة السياسية من أسيادهن[3]. وتجدر الإشارة إلى أن الأتراك كانوا نسويين أصلاً في القرون الوسطى، يثيرون استهجان العرب بالمكانة البارزة التي منحوها للنساء في الساحة السياسية وإصرارهم على إشراكهن فيها. ويعجب إبن بطوطة، الرحالة الشهير الذي انطلق من طنجة واجتاز آسيا في القرن الرابع عشر، لرؤية أمير تركي ينهض أمام امرأة: «ورأيت بهذه البلاد عجباً من تعظيم النساء عندهم، وهن أعلى شأناً من الرجال، فأما نساء الأمراء، فكان أول رؤيتي لهن عند خروجي من القِرم... ومشت كذلك متبخترة، فلما وصلت إلى الأمير، قام إليها وسلّم عليها، وأجلسها إلى جانبه، ودار بها جواريها»[4]. لقد كانت نساء العرب مستبعدات عن

= of the turkish sultans with a history of the grand seraglio from its foundation to modern times ' Spring Books, London, 1965. First edition published by Harrap & Co in 1936. op. cit. page 187.

(3) أنظر تحديداً الفصلين السابع والثامن المخصصين للحريم في كتاب Penzer. *The Harem*. op. cit.

(4) إبن بطوطة، «الرحلات»، دار بيروت، 1985. وقد اعتمدت الترجمة الفرنسية التي قام بها: =

الشأن السياسي، وقيام أمير أمام امرأة كان بالتأكيد العجب العجاب. وتدل دهشة إبن بطوطة في الواقع على اختلاف تام داخل الامبراطورية الإسلامية بين الأتراك الذين كانوا لا يترددون في تكليف النساء بمناصب إدارية حيوية، بل وبتسلم مقاليد الحكم في بعض الأحيان، وبين الخلفاء العباسيين الذين كانوا يرفضون المصادقة على مثل هذه التعيينات. وكان هذا هو الحال بالنسبة إلى الخليفة العباسي المعتصم بالله الذي عارض أشد المعارضة اعتلاء امرأة عرش مصر حين عيَّن الجيش التركي شجرة الدر، زوجة الملك أيوب، ثامن ملوك السلالة الأيوبية في مصر، مكان زوجها[5]. وقد حدث ذلك عام 648 / 1250، وكانت مصر وقتئذ تخضع لخلافة بغداد، وشجرة الدر قد أحرزت نصراً عسكرياً مبيناً ضد الصليبيين في دمياط. ولم تتبوأ النساء سدة الخلافة في العديد من الدول الإسلامية إلا في أعقاب تدمير بغداد عام 1258 على يد المغول الذين وضعوا حداً لحكم سلالة الخلفاء العباسيين. وترى المؤرخة التركية بدرية أوسوك أن أحد أسباب بروز النساء[6] في الشأن السياسي لدى الأتراك

= Defremery et Sanguinetti. Maspéo, Paris, 1982. Vol II. *De la Mecque aux steppes russes*, p. 215

(5) عمر كحالة، «أعلام النساء في العالمين العربي والإسلامي»، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، دمشق، 1982، المجلد 2، ص. 287.

(6) لقد أحصيت 15 امرأة حاكمة في كتابي «سلطانات منسيات: نساء =

يكمن في الدور الذي كان لهن في السلطة. . . «كانت أمهات الملوك الذين لم يبلغوا سن الخلافة يشغلن منصب الوصيات على العرش، وزوجات الملوك يتسلمن مقاليد الحكم حتى انتخاب خان جديد. . .»[7]. ويعزى ذلك إلى أن مجمل النساء اللواتي اعتلين العرش في البلدان الإسلامية، باستثناء بعض السلطانات في المحيط الهندي، ينتمين جميعهن إلى سلالات تركية أو مغولية[8]. وتحيلنا هذه الظاهرة إلى السؤال المحيِّر التالي: لماذا كان إنغر في القرن التاسع عشر، وماتيس في القرن العشرين، يرسمان محظيات تركيات مستسلمات ومسترخيات، في حين يذكرهن التاريخ الإسلامي بالتحديد كنساء تخطين حدود الحريم ومارسن السياسة أكثر مما كانت تسمح لهن الأعراف والتقاليد؟

وتجدر الإشارة إلى أن ماتيس، حين أنهى عام 1928 لوحته «المحظية ذات السروال الأحمر»، كان كمال

= حاكمات في بلاد الإسلام» ولكن المؤرخة التركية بدرية أوسوك، في كتابها Femmes Souveraines en Islam «النساء الحاكمات في التاريخ»، المنقول إلى العربية، مكتبة السعدون، بغداد، 1973، والتي تجيد العربية والتركية ولغات آسيوية أخرى، قد أحصت المزيد.

(7) Badriye Uçok. *Femmes turques souveraines et régentes dans les états islamiques*. traduction française publiee par Baçari Matbaatcilik, date non indiquée. p. 142.

(8) Badriye Uçok. *Femmes turques souveraines et regentes dans les états islamiques*. p. 142.

أتاتورك يغير وجه تركيا، مرسياً الأسس القانونية لثورة نسوية حقيقية: فقد قام بإصلاح قانون الأحوال الشخصية بالدرجة الأولى لدى تسلمه مقاليد الحكم عام 1923. وعند انتخابه رئيساً للجمهورية عام 1925، صدر قانون جديد للأحوال الشخصية يحظّر تعدُّد الزوجات ويمنح النساء امتيازات كثيرة(9). وقد منحت النساء حق الاقتراع عام 1934، وجرى انتخاب ما لا يقل عن 17 امرأة في البرلمان إبان الانتخابات التشريعية التي جرت عام 1935(10). ولم يقم أتاتورك بتحرير النساء لسواد عيونهن

(9) Denitz Kandiyoti "Among the countries of the Middle East and Europe, Turkey stands out as a republic that has addressed the question of women's emancipation early, explicitly and extensively through legislative reforms initiated by Mustafa Kemal Ataturk, the founder of the modern turkish state. The turkish civil code adopted in 1926 outlawed polygamy, gave equal rights of divorce to both partners and rights of child custody to both parents. Women's enfranchisement soon followed and women were granted to the vote in local elections in 1930 and at the national level in 1934. In *From empire to nation state: tranformations of the woman question in Turkey*. op.cit. p. 219.

(10) استناداً إلى الباحثة التركية في علم الاجتماع دينيتز كانديوتي، حصلت النساء التركيات على حق الاقتراع في الانتخابات البلدية عام 1930، ولكنهن لم يمنحن حق الاقتراع في الانتخابات التشريعية إلا عام 1934 خلال عهد أتاتورك. أنظر:

Denitz Kandiyoti. *From empire to nation state: tranformations of the woman question in Turkey, in Retrieving women's history: Changing perceptions of the role of women in politics and society*, UNESCO, Paris, 1988, p. 11.

بل بادر إلى تجنيدهن في الجيش التركي أثناء الحرب ضد المحتلين اليونانيين الذين ألقى بهم في البحر عام 1922. ومن جهة أخرى، فقد فرضت التعبئة المستمرة للرجال على جبهات الحرب انخراط النساء في ميدان العمل(11). فكيف يمكن أن نفسر بالتالي هذه القطيعة التامة بين المرأة التركية الحبيسة في دور المحظية التي رسمها ماتيس، والحقيقة التاريخية التي قامت بتحريرها؟

أعتقد أن الإجابة على هذا السؤال المحيِّر يكمن في أن ماتيس قام، على طريقته، بتقبل المساواة بين الرجل والمرأة، هذه المساواة التي كانت الجمهورية المواطنية تفرضها عليه. كانت تلك طريقته في تكوين هوية جنسية جديدة: فبما أن القانون يرغمه على الاعتراف بمبدأ المساواة بين الجنسين، كمحصّلة حتمية للمواطنية،

(11) أسفرت نهاية الحرب العالمية الأولى عن تقسيم الامبراطورية العثمانية المهزومة، وسيطرة الدول الغربية العظمى على الأقاليم في منطقة الأناضول. وقد أثار هبوط القوات اليونانية في إزمير في شهر أيار / مايو 1919 واحتلال البريطانيين لاسطمبول في شهر آذار / مارس 1920 موجة احتجاج شعبي عارمة لم تكتف النساء بالمشاركة فيها بل ألقين الخطابات في التجمعات التي أقيمت في الشوارع، ووجهن نداءات حماسية للدفاع عن الوطن الأم. وقد انضم العديد من النساء إلى قوات أتاتورك في الأناضول، بمن فيهم الروائية المعروفة Halide Adib Adivar التي أرّخت أحداث تلك الفترة في مذكراتها. . .

Denitz Kandiyoti: *From empire to nation state: tranformations of the woman question in Turkey*, op.cit. p. 233.

فسوف يجد له ملاذاً في عالم الخيال، ويهب نفسه حريماً، ولكنه في الحقيقة، سوف يتظاهر بتقبل المساواة بين الرجل والمرأة. وتشكل هذه التسوية بين الحقيقة والاستيهام السعي الشجاع للرجل الأوروبي من أجل تكوين هوية جنسية جديدة؛ ولكن هذا السعي لم يكتمل بما أن صناعة الأزياء وصناعة الأفلام اللتين تعتبران الفضاءين الجديدين اللذين يمرح فيهما الخيال، ويحتكرهما الرجال، لا يزالان يعتمدان نموذج المرأة ـ السلعة[12]. غير أنني أؤكد على أن الرجل الأوروبي شجاع لأنه قرّر أن يسلك، منذ قرون عديدة، الطريق الوعر للحرية المسؤولة خلافاً للزعماء الصينيين أو العرب الذين يتشبثون بعلاقات متفاوتة وسلفية بين الرجل والمرأة، وهذا الخيار الصعب يجعل شجاعته تثير المزيد من الإعجاب.

ويقوم الرجل الفرنسي بإطلاق العنان لخياله وتقبل المساواة التي تفرضها عليه المواطنية. ولن تكون إماؤه فرنسيات بل تركيات، ولا هَمَّ إن كان أتاتورك قد اكتشف في الحركة النسوية ذريعة جيدة لتجنيد النساء في خدمة الدولة الوطنية؛ والواقع أن إنغر وماتيس اللذين كانت

(12) Sarah Graham-Brown. *Images of Women: The portrayal of women in photography of the Middle East, 1860-1950* Columbia University Press. New York, 1988, p. 218.

محظياتهما فرنسيات في العمق، كانا يجهلان كل شيء عن تركيا. ولقد سعيا لحل مشكلة أوروبية حصراً، أي الصعوبة التي يواجهها الفرد ـ المواطن لتكوين هوية جنسية جديدة. ولا شكَّ أن المساواة القانونية بين الجنسين بداية جيدة، ولكن الطريق لا يزال طويلاً قبل أن يتوصل الرجال الذين يفقدون تفوقهم وامتيازات هائلة أخرى (ولا يُعتبر إعفاؤهم من الطهي والجلي شيئاً يذكر!) إلى تكوين هوية جنسية منسجمة جديدة. فقد تطلب الأمر قروناً عديدة والكثير من التحويلات والتعويضات على مستوى الاستيهام والحركية النفسية.

ما هو الدرس الذي يمكن أن نستخلصه من هذا التحري حول حريم الرجال الأوروبيين؟ أنصحكن، إن كنتن تعشقن الرجال العرب مثلي، أن تقدمن لهم ألواناً لتشجيعهم على تلوين نزعاتهم السلفية، وبالتالي التخلص منها. ويجب على الحركة النسوية أن تستثمر مدخرات عضواتها في شراء علب ألوان. قدِّمن هذه العلب إلى أزواجكن و/أو عشاقكن، وادعوهن لرسمكن على شكل إماء وتعليق لوحاتهم في الصالون. لم لا، طالما أن ذلك يساعد رجالنا على تقبلنا أنداداً لهم، ويكفي زيادة كمية الألوان كلما تطرَّف الأزواج.

وهنا يكمن الفرق بين ماتيس ومتطرف صيني أو مغربي، فالأول يكتفي بجارية يرسمها مع إدراكه بأن

الحقيقة غير ذلك؛ والثاني يستشيط غضباً حين يرى نساء سافرات، ويتقبل على مضض أن يكون الفضاء العام ملكاً للنساء أيضاً، وألا يتمكن من أن يفرض عليهن الزي الذي يريد، وبمقدور هذا المتطرف في كل الأحوال، وعلى غرار ماتيس، أن يرسم نساءً محجبات كي يطيق حقيقة مغايرة تماماً.

وبالتالي، يمكننا أن نتوقع ازدهاراً سريعاً في مجال بورصة الرسم والألوان على مشارف القرن الحادي والعشرين.

ولا يبدو أن حب النساء للمكائد الديبلوماسية كان من اختصاص الحريم التركي، ذلك أن مئات النساء، وبالرغم من العداء المأثور للمرأة الذي اشتهر به العرب الذين لا يقبلون بأي دور سياسي للنساء، قد تدخلن في الشأن الديبلوماسي استناداً إلى المؤرخ المغربي عبد الهادي التازي، مؤلف **التاريخ الديبلوماسي للمغرب**[13]. ويبين الفصل الذي يحمل عنوان **النساء الديبلوماسيات والسياسيات** في كتابه **مشاهير النساء في الغرب الإسلامي**، حيل النساء وسعيهن الدؤوب لانتزاع فتات السلطة بالرغم من حياة الأسر في الحريم[14].

---

(13) عبد الهادي التازي، «التاريخ الديبلوماسي للمغرب» مطبعة فضالة، مارس 1986.

(14) Abdel Hadi Tazi "Femmes célèbres dans l'occident musulman: =

والجدير بالذكر أن المحظية الخاضعة التي يقتصر نشاطها على انتظار السيد إلى الأبد، وهي مستلقية على بساطها، غير موجودة في كتب المؤرخين المسلمين، فهؤلاء يصفون نساء يفكرن ويتصرفن غالباً عكس مشيئة سيدهن.

غير أن الرجال المسلمين، في جهتنا من المتوسط، لم يشعروا قط بالخطر على السلطة الشديدة الاعتباطية التي يمارسونها على النساء، ويتمثل هاجسهم اليومي في «الكيد»، أي ذلك الانجذاب نحو المرأة التي يعرف الرجل حق المعرفة أنها شديدة الذكاء وغير قابلة للخضوع تماماً. ولا تسود الثقة بين المحبين على ضفتنا من المتوسط، فالمرأة قد تفاجىء الرجل في كل لحظة.

ويشكل الكيد أحد المصطلحات النموذجية في النفسية الذكورية المسلمة، وهو حيلة نسائية تكمن خطورتها في أنها تعمل في الخفاء ولا تعلن نواياها. وفي تعليق على الآية الثامنة والعشرين الشهيرة من سورة يوسف «إن كيدكنَّ عظيم»، يقول عبد الرؤوف المصري، مؤلف **معجم القرآن** الذي يتميز بطابعه التعليمي الشديد إن «مكركن أيتها النساء يفوق بكثير مكر الرجال لأن حيلة النساء تختفي تحت ستار اللطف الذي ينقص الرجال،

= Algérie, Maroc, Mauritanie, Lybie et Andalousie" Éditions le Fennec. Casablanca, 199. النص الأصلي بالعربية.

وبالتالي، يكون أثرها أعظم»[15]. ولعل الحريم المكان الذي تتجلى فيه سلطة النساء هذه بأوضح الأشكال، على الأقل لأن ميزان القوة فيه شديد التفاوت، والظلم فيه جلي واضح بحيث أن الرغبة الوحيدة التي تساور النساء تقوم على الانتقام من النظام. كما أن موازين القوى بين الرجال والنساء واضحة جلية ولا لبس فيها. فبما أن سلطة الرجال غير مهددة، تنعدم الإرادة لتحقيق المساواة. والمرأة التي تغوي في أدبنا العربي هي بالضرورة ذكية، والجمال قبل كل شيء هو ذلك التحدي للرجل الذي يعرف منذ البداية بأن لعبة المرأة تقوم على إعاثة الفساد.

ولم يكن هذا الأمر يخفى على الخليفة هارون الرشيد. أفلم يقل في إحدى القصائد التي ارتجلها للمناسبة[16]:

ما لي تطاوعني البرية كلها

وأطيعهن وهن في عصياني

ما ذاك إلا أن سلطان الهوى

وبه عززن أعز من سلطاني

(15) عبد الرؤوف المصري، «معجم القرآن»، دار السرور، بيروت، الطبعة الثانية، 1948، ص. 126

(16) ترجمتي لكتاب الأغاني لأبي فرج الأصبهاني، المجلد 16، ص. 345 في سيرة ذات الخال، وهي جارية أخرى كان هارون الرشيد مفتوناً بها.

ويعتبر الحسن أحد أهم الألفاظ العربية التي تدل على جمال المرأة. والحسن جمال يقوم على الذكاء والعلم المذهل للمرأة التي تتفوق في مجالات عديدة وتتعدد مواهبها، ويعبر وصف **فضل**، الجارية الشهيرة للخليفة المتوكل، عن هذه الدلالات: «كانت فضل شاعرة صالحة الشعر وأكثر مخلوقات الله عز وجل حسناً. كانت مليحة الخط، وأفصحهن، تخلب الألباب ببلاغتها ومذهبها في الكلام...»[17].

وتشير الدراسات السوسيولوجية الحديثة في عصرنا الراهن أن الشابات الأميات يجدن صعوبة في الزواج في المغرب. فالرجال يبحثون عن زوجة تملك شهادة وراتباً وشخصية، وتستطيع أن تؤازرهم في مواجهة الأزمات الاقتصادية التي تتربص بالزوجين. وهل يجب التذكير بأن الرجل العربي الذي ينجذب إلى امرأة، لا يتردد في وصفها «بالعفريتة»، وهو تصريح بالحب غالباً ما كنت أسمعه خلال مراهقتي في المدينة القديمة بفاس: «الزّين هلكني! سات مارد هاذا!» (جمالك أهلكني، وهو لشيطان متمرد فوق ذلك!).

ويتجذر حسن المرأة في ذكاء جموح، وعلى هذا

---

(17) ترجمتي لابن الساعي، «نساء الخلفاء»، دار المعارف، القاهرة، تاريخ النشر غير مذكور، الصفحة 45 (توفي الكاتب في عام 674 هجري، أواخر القرن الثالث عشر).

المستوى، نرى أن هوة سحيقة تفصل بين الشرق والغرب. فنموذج الجمال لدى الغربيين يبقى، في أيامنا، بالرغم من انتشار الحركات النسوية، نموذج عارضات الأزياء اللواتي تبيعهن الدعاية للجماهير، وتلك العارضات فتيات صغيرات يتميزن بمظهرهن التائه والهش وانفصالهن عن الواقع.

عندما أقمت للمرة الأولى في الولايات المتحدة، وانتسبت إلى الجامعة لإعداد أطروحة الدكتوراه، في بداية السبعينات، كم كانت مفاجأتي عظيمة حين اكتشفت أن المرأة الجميلة يجب أن تكون غبية بالضرورة. وتملك المرأة الخيار بين أن تكون جميلة ومتبرجة وتضع الحلي، أو أن تكون ذكية وتحرم نفسها من كل هذه الزينة. لقد كانت الشقراء الغبية The dumb blond، كما قيل لي في إحدى المجموعات العلاجية التابعة للحركات النسوية التي كانت رائجة في ذلك الحين، نموذج هوليوود والدعاية الأميركية. وبالتالي، كان لزاماً عليَّ أن أكف عن التبرج، ووضع أقراطي وأساوري الكثيرة لأن أساتذتي (وجلهم من الذكور) قد يعتبرونني بلهاء. وقد صرخت قائلةً: «الله، ما العمل؟، فأنا لا أعرف كيف أسير دون أقراطي وأساوري المزيفة التي أصنعها بنفسي!، ذلك أن التبرج لم يكن مرادفاً للغباء في مدينة فاس». وقد قيل لي إن نظام القيم السائد يحكم على الأميركيات بالاختيار بين الجمال

والذكاء. وقد أرغمت بعض النساء اللواتي سعين للتوفيق بين الاثنين كمارلين مونرو، على الانتحار. ولقد قرأت كل ما تيسر لي حول مارلين مونرو التي أصبحت نجمتي المفضلة بعد أسمهان. وكم عجبت إذ أدركت أن كل ما يقال عنها صحيح. فقد صرحت مارلين مونرو خلال مقابلة صحافية أجرتها في شهر حزيران/يونيو عام 1955: «إن معركتي مع الستديوهات لا تتعلق بالمال بل بحقوق الإنسان... لقد ضقت ذرعاً بأن يعرفني الناس بالمرأة التي تملك جسداً جميلاً... سوف أثبت لهم أنني ممثلة جيدة!»[18]. ولكنها لم تحسن التمثيل وخسرت الرهان لأنها ماتت انتحاراً. ولقد كلفتني أقراطي ستة أشهر من العمل الدؤوب في الجامعة الأميركية لأن لجنة المنح الدراسية لم تشأ مساعدتي للحصول على منحة قبل التأكد من أن ذكائي لم يكن دون المتوسط. وطلبت مني هذه اللجنة إعداد بحث صعب ورصين لأن هيئتي لم تكن هيئة امرأة ذكية بمجوهراتي وثيابي. وطوال ستة أشهر، اضطررت للعمل لدى أسرة مقابل المسكن، وجلي الأطباق، وتدريس الفرنسية لتسديد أقساط الجامعة. وقد فتحت هذه الحادثة الثقافية أمامي آفاقاً مذهلة بصفتي طالبة في علم الاجتماع، وكان موضوع أطروحتي هذا الصراع

(18) *Marilyn Monroe*. Francoise Arnould-Françoise Gerber, Éditions PAC, collection Tétes d'Affiches. Paris, 1982, p. 25.

بين نظرة الغرب المسيحي والشرق المسلم لسلطة النساء. وقد أثبت نشر الأطروحة عام 1975 تحت عنوان Beyond the Veil (أو Sexe, Ideologie et Islam بالفرنسية) أن الأقراط ليست مؤشراً موثوقاً لمعدل الذكاء.

وفي كل الأحوال، فقدرة النساء التي تتجلى وراء مظاهر الرقة والنعومة حاضرة جداً في ثقافتنا الإسلامية. وقد تميز العرب بنوع أدبي لا يعرفه الغرب، ويدعى «النسائيات»، وهي كتب لمؤلفين رجال يدور موضوعها الرئيسي حول النساء. وقد حاول صلاح الدين المنجِّد، أحد كبار الاختصاصيين في الأدب النسائي، تصنيف هذه الأعمال الأدبية الضخمة، وتوصل إلى إحصاء المئات منها في كتابه **ما ألِّف عن النساء**[19]. ويخلص المنجِّد إلى أن ما وقع عليه لا يضم العدد الهائل من المخطوطات غير المنشورة بعد في المكتبات العربية. عما يتحدث هؤلاء السادة حين يقرِّرون تدوين ما نلهمهم إياه؟ إنهم يتحدثون عن كل شيء! وتصوَّروا أن هذا الأدب يعتمد كل الأنواع، والمرأة المسلمة التي تبرز فيه ليست مهمَّشة ولا مقموعة ولا صامتة ولا غبية بل على العكس؛ ويصفها هؤلاء الأدباء بأنها ناشطة في بناء حضارتها، بشقيها الديني والدنيوي.

---

(19) صلاح الدين المنجِّد، «ما ألِّف عن النساء»، مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد 16، 1941.

وتبرز ثلاثة أنواع من التيارات في هذا الأدب: النوع الأول يتعلق بالمجلدات المخصصة للنساء في كتب التاريخ الكلاسيكي المتعددة الأجزاء، وهذا هو الحال بالنسبة إلى المجلد الثامن من كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد الذي عاش في القرن التاسع وتوفي عام 230 هجري، ويكرس ابن سعد هذا المجلد لصحابيات الرسول اللواتي أسهمن في بناء الحضارة الإسلامية[20]. أما النوع الثاني من هذا الأدب فيعنى بالنساء فقط، كما هو الحال بالنسبة إلى **رسالة في أمهات الخلفاء** لابن حزم الأندلسي[21]. وأخيراً، يعتبر النوع الثالث بمثابة دليل المشاهير Who's who، ويذكر النساء اللواتي ذاعت شهرتهن لسبب أو لآخر مثل كتاب **بلاغات النساء** لابن طيفور[22].

ويذهب المؤرخون العرب في العصر الحديث كأحمد أمين إلى القول إن إحدى الثورات البارزة التي أحدثت تغييراً جذرياً في طبيعة السلطة السياسية وحضارة

(20) إبن سعد، «الطبقات الكبرى»، دار الفكر، 1985.

(21) إبن حزم الأندلسي، «رسالة في أمهات الخلفاء» – الرسائل – تقديم وتعليق د. إحسان عباس – المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، المجلد 2، ص. 1 – 120 و 122.

(22) الإمام ابن طاهر بن طيفور، «كتاب بلاغات النساء»، دار النهضة الحديثة، بيروت 1972. وقد توفي بن طيفور عام 280 هجري (القرن العاشر).

الامبراطورية الاسلامية، كانت ثورة الجواري اللواتي استطعن إلغاء الطابع العربي عن الخلافة، وإفساد الدم العربي للخلفاء الأوائل، بحمل أبنائهن نصف الأعاجم إلى سدة الخلافة. ويشير أحمد أمين إلى أن التأثير الفريد لظاهرة التوليد، أي اختلاط الأعراق الذي أدخلته الجواري الأعجميات في الحريم، يكتسب دلالة ومغزى حين نعرف بأن الأمراء العرب، قبل الإسلام، كانوا عنصريين بكل بساطة، ويحرصون أشد الحرص على نقاوة سلالتهم بالزواج من نساء علية القوم العربيات، أي بنات أعمامهم[23]. ويكفي التذكير في هذا السياق بموقف هشام بن عبد الملك، عاشر خليفة أموي (724 / 105 – 743 / 125) الذي استهجن مطالبة أحد خصومه، زيد بن علي، بالخلافة، وهو ابن جارية:

«بلغني أنك تحدث نفسك بالخلافة، ولا تصلح لها، لأنك ابن أَمَة»[24].

---

(23) أحمد أمين، المجلد الأول من مجموعة «ضحى الإسلام»، المخصص للحياة الاجتماعية وتنوع الثقافات في العصر العباسي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة 6، ابتداءً من الصفحة 9.

(24) إبن عبد ربّه الأندلسي، «العقد الفريد»، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، المجلد 7 مخصص للنساء ويحمل عنوان «كتاب المرجانة في أخبار النساء»، ص. 141. وقد توفي إبن عبد ربّه عام 338 هجري (940 م). ويتألف هذا الكتاب الذي يحمل عنوان «العقد الفريد» من 25 فصلاً يحمل كل منها إسم حجر كريم (لؤلؤة، ياقوتة، مرجانة، زبرجد، =

وفي أقل من أربعين عاماً، بين حكم الخليفة هشام بن عبد الملك وحكم الخليفة هارون الرشيد، سوف تحدث الجواري ثورة في الذهنيات والممارسات الجنسية السائدة لدى الحكام العرب، وتحملهم على الانفتاح على الاختلافات الثقافية واعتبارها مصدراً للاغتناء. وسوف يفقد العرب نقاوة عرقهم وسلالتهم بارتضائهم أن يعتلي عرش الخلافة أبناء إماء فارسيات ورروميات وحبشيات أو آسيويات، ولكنهم، بالمقابل، ظفروا بحضارة إسلامية كوزموبوليتية شديدة الغنى، تتميز بتنوع يرسخ عالميتها التي تشكل إحدى الخرائط السياسية للإسلام الإنساني بصفته قوة ثقافية في القرن الحادي والعشرين.

لقد مارس العرب «العولمة» قبل الأمم الأخرى بكثير نوعاً ما. ويكشف لنا إبن حزم أن معظم الخلفاء العباسيين كانوا نصف أعاجم «كانت مراجل، أم المأمون، رومية (من الامبراطورية الرومانية في الشرق، أي بيزنطية...)، وشجاع أم المتوكل كانت تركية، وحبشية أم المنتصر، كانت رومية بدورها... وقبيحة أم المعتز كانت

= الخ.)، ويقع في ثمانية مجلدات. وقد حاول محمد ابراهيم سليم أن يجمع كل ما قيل عن النساء في المجلدات الثمانية، بالإضافة إلى فصل «المرجانة» الذي خصصه الكاتب لهن بأكمله، تحت العنوان التالي: طبائع النساء وما جاء فيها من عجائب وغرائب وأخبار وأسرار لإبن عبد ربه، مكتبة القرآن، القاهرة، المكتبة الوطنية.

سلافية...»[25]. ويعتبر أحمد أمين التوليد، أي اختلاط الأعراق، إحدى سمات السلالة الثانية من الخلفاء العباسيين الذين لم يعودوا، على حد قوله، عرباً بكل معنى الكلمة: «ونعني بالتوليد، أن يتزاوج رجل من أمَّةٍ وامرأة من أمَّة أخرى، فينشأ بينهما نسل يجري في عروقه دم الأمَّتين... وكان هذا التوليد ظاهرة قوية نتجت عن اختلاط الأجناس». وقد أصبح التوليد نزعة رائجة لدى العرب كما يقول أحمد أمين: «كان ولع الناس بالاختلاط بغير العرب أقوى وأشد، وميلهم إلى الإماء أكثر منه إلى الحرائر». ويخلص المؤرخ في تحليله للعصر العباسي إلى أنه «كما كان هناك «توليد» بين الأجسام، كان هناك توليد عقلي، فعقول الناس من الأمم المختلفة كان يتناوبها اللُّقاح»، أي تخصيب الثقافة العربية بعناصر فارسية وتركية وأوروبية وآسيوية وأفريقية. وهكذا ولدت حضارة إسلامية عالمية خاض فيها العرب لعبة المنافسة وخسروا لأن الفرس سرعان ما سيطروا عليهم ثقافياً، وانتزع منهم الأتراك السلطة داخل الجيش.

وبالتالي، يعود الفضل للجواري الأعجميات في هذه العالمية المستندة إلى تمازج الأعراق والمنافسة الحرة،

25) إبن حزم الأندلسي، «رسالة في أمهات الخلفاء» – الرسائل – تقديم وتعليق د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، المجلد 2، ص. 1– 120 و122.

وهي لا تزال غير واردة في أيامنا الراهنة على سبيل المثال في الولايات المتحدة الأميركية، حيث الاختلاف بين البيض والسود يبقى خاضعاً للتمييز العنصري بالرغم من التقدم الذي أحرزته حركة الحقوق المدنية في السبعينات. ويعيدنا كل ما سبق إلى محظية إنغر وماتيس، تلك الأَمَة الحبيسة في القصر والسعيدة بأسرها، والتي يغشى عليها من فرط استسلامها للمتعة بانتظار عودة سيدها الذي تطيعه دون السعي لإفساد قانونه. وعلى ما يبدو، فهذه المحظية لم تكن معروفة قط في جهتنا من المتوسط. وفي مطلق الأحوال، لم يؤمن بها رجالنا كثيراً، ولذا فأنا متفائلة بقدرة الرجال العرب عموماً، ولا سيما المغاربة، الذين لا أعاشر غيرهم يومياً، على المضي قدماً في طريق التحرر الذي سلكته النساء منذ عقود خلت.

وأعتقد أن الطريق الذي يقود نحو تحرير المرأة يشبه قليلاً، بالنسبة إلى الرجل المغربي، الطريق السريع بين الرباط وطنجة: فالمغاربة يقسمون بأنهم لن يسلكوه لأنه باهظ الكلفة، ثم يقبلون بالتضحية، اعتباراً من شهر تموز/ يوليو؛ ومن ثم، ومع العادة، لا يستطيعون الاستغناء عنه لأنهم يدركون بأن المرأة المتحررة، على غرار الطريق السريع الواسع والمستقيم، هي مفتاح السعادة والنجاح.

المحتويات